طريق الريح

طريق الريح

رواية

سلطان الحويطي

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: طريق الريح
اسم الكاتب: سلطان الحويطي
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 17262 / 2020
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85735 – 4 – 1

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى

"الذين استيقظوا من سباتهم قبل الموت"

الملك الآن للأعاصير فقد أنزلوا زفس عن العرش.

"أرسطو فانيس"

في إحدى ليالي الصحراء، كانت بلايين من الحيوانات المنوية تتدفق في ظلام دامس تتحسس طريقها بشراهة باحثة عن بويضات تخصبها، وأحد هذه الحيوانات علق ببويضة تشبث بها جيدًا؛ اتحد معها في عملية تخصيب ناجحة، لتنفخ الروح في ظلام لا محدود ويتكون إنسان جديد يقدم لهذا الكون البائس.

إسترجع صورة وجهه القبيح مستغربًا عدم اختياره ضمن الأجساد المشوهة التي ستدفن بشكل جماعي قبل مغيب شمس هذا اليوم.

تمعن الدمامل في وجهه الشبيه بكرة القدم، نظر للندبة الحمراء المستقرة أعلى جبينه، تقزز من أنفه الشبيه بأنوف الكلاب إلى حد كبير؛ وبسبب هذا الشبه بات يُعرف "بأنف الكلب"، نظر لجسده القصير بازدراء، فلطالما تمنى أن يتخلص من هذا الجسد ولكن "سيط الله" فوّت عليه الفرصة.

عقد "سيط الله" اجتماعا عاجلًا تحت شجرة السمر العملاقة في الناحية الشرقية لقاع بني مرة، خمّن "سعد الأفعى" أن الاجتماع ربما يكون بشأن القحط؛ فمنذ أعوام عديدة لم تهطل قطرة ماء واحدة، لم يكن متحمسا للاجتماع بالقدر الكافي على الرغم من ذلك، ترك قطيع أغنامه في المرعى ليظهر من بين الكثبان كفارس عاد منهزما منكسرا، شاربه الأسود الكثيف ولمعة عينيه يعطيانه سمات شخص غير مبالٍ

بشيء، لم يترك عادته في السير حافيا، فلم ينتعل حذاءً طوال حياته. أما "أم المغيث" التي تباطأت في الذهاب، فكانت تعتقد أنه سيتم إعلان الرحيل في هذا الاجتماع، وهو ما تمنت حدوثه منذ تلك الليلة التي افترس الموت زوجها في أعلى الجبل على الصخرة الملساء، وثم إن الجدب ضرب بكل قواه، فلم يعد في الديار كلأ ولا ماء. يسير محاذيا لها "عطية"، يمشي بخطوات متثاقلة كمن يحمل الصحراء على ظهره لا يعنيه الاجتماع، كان مبهوتا، كل ما يشغله كيف سيخفي نهديه البارزين عن الناس؛ فقد لاحظ من ثلاثة أيام أن نهديه بدآ التضخم، أصبحا كنهدي فتاة بالغة، انهكه التفكير في هذا التغير الذي حدث في جسده. أي عار سيلحق به ما أن يعلم أهل القاع بذلك.

جماعات كثيرة توافدت إلى مقر الاجتماع، ساروا على مهل، وطئوا الرمل بأقدام مغبرة. أنظارهم شاخصة، وكأنهم أموات خرجوا للتو من قبورهم يبحثون عن ذكرياتهم، بقايا أصواتهم، لحظاتهم المبعثرة هنا وهناك!

وصلوا جميعًا وتحلقوا حول شجرة السمر العملاقة، شجرة باسقة الطول عصية حتى على الجِمال، جذعها النحيل مليء بالنتوء والتشققات، جلس تحتها "سيط الله"، والشيخ "مهلاليل" وما أن اكتملت دائرة الجموع حتى نهض "سيط الله" كذئب مستثار، نظر إلى قرص الشمس المحترق طويلًا، ثم تمعن في الوجوه المترقبة، وبعد أن تنحن خرج صوته أجش وخرجت كلماته كرماح استقرت في الصدور:

_ جمعتكم اليوم لأمر جلل، ألستم تريدون المطر؟

لم ينتظر الإجابة من أحد وواصل حديثه:

إذا كنتم تريدون رضى الله، فألقوا كلَّ مشوهٍ للجحيم، تعلمون أننا ابتلينا بأصحاب الأجساد المشوهة، وهذا سبب عدم هطول الأمطار، اليوم سنتخلص منهم جميعا، اليوم سيرضى علينا الرب، وسيصب علينا المطر كأفواه القرب. ثم أخذ يعدد أسماء أصحاب الأجساد المشوهة، اندهش "أنف الكلب" أن الزعيم لم يذكر أسمه ضمن القائمة، تقدم وشق الصفوف ووقف أمامه تماما ليكون في مجال رؤيته، وعندما وقعت عيناه عليه تأكد أنه لم يكن قد نسيه، بل أن القرار لا يشمله بالفعل.

تفرقت الجموع يحفهم الذهول من هذا القرار الصادم، الصمت يلف المكان، الأجساد تتوارى خلف كثبان الرمل وبقي "أنف الكلب" يذرع ذلك الركن ذهابا وإيابا ويفكر بصوت عالٍ:

"لماذا أبقى الزعيم علي! ألست مشوها؟ لماذا يريدون أن تستمر حياتي المعذبة".

1

جلست "أم المغيث" بجوار ابنها الوحيد في ركن بيت الشعر، حيث تركته قبل أن تذهب للاجتماع ملفوفًا برداء أبيض لا يظهر منه سوى وجه شاحب، تبرز منه عينان كبيرتان زائغتان، وأنف صغير كرأس جرادة، وشفة سفلية متدلية، وأذنان طويلتان كأذني ثعلب، وأسنان صفراء بارزة. جسمه النحيل جدا ينتهي بساقين ملتصقتين وذراعين رخويتين لا عظام فيهمها، لم يتجاوز طوله الذراع، على الرغم من أنه منذ أسبوع فقط أتم عامه السادس.

قالت وهي تنظر لتلك الكومة من اللحم:

أسميتك "المغيث" كي تجلب لنا المطر، وها هي ست سنوات عجاف تمضي علينا دون أن تنزل قطرة ماء واحدة.

في تلك الليلة التي بُذرْتَ فيها في رحمي، كنت أقف خارج بيت الشعر أرقب الشمس، وقد بدت أكبر حجما من المعتاد؛ كانت حمراء كالدم، توجهت نحو المغيب بسرعة وكأنها تهرب من الكون، وقف

جميع الناس مذهولين يرقبونها، كانت وجوههم حمراء أيضا، الأرض حمراء، قمم الجبال هي الأخرى حمراء، ومن بين تلك الحُمرة ظهر خيال "مهلاليل"، يسير فزعا في المضارب، ظهره الأحدب وجلبابه الواسع جعلاه يبدو ككائن أسطوري، غريب كان يصرخ بصوت متعب مرتجف:

"ويل لكم، لن تشرق الشمس بعد اليوم؛ ستعيشون في ظلام"

تسلل الفزع والقلق للناس، حتى البهائم كانت تقف تنظر له بذهول.

بقي الشفق لفترة طويلة وكأنه دماء لطخت السماء، بينما غادرت الشمس في مشهد مهيب يشبه مشاهد الجنائز. أما القمر الذي ظهر من خلف الجبال بدا شاحبا حزينا، لم يستطع الصمود فارتدى حمرة الشفق.

في تلك الأثناء تعالى صوت منادٍ:

يا أهل القبيلة، الزعيم "سيط الله" يدعوكم لاجتماع عاجل، لا يتخلف منكم أحد، على جميعكم الحضور لخيمة الزعيم.

لا أعلم لماذا لم أذهب لذلك الاجتماع، ربما لأن الليلة تكون موعد عودة والدك من رحلته المضنية، مضى شهر على سفره، لا أنسى تلك الليلة التي غادر بها، تمسكت بخطام ناقته كي أثنيه عن الرحيل، حذرته من مغبة هذه المغامرة، لكنه دفعني غاضبا وقال بحزم: أريد الولد يا "هاجعة"، أريد من يحمل اسمي. وساق ناقته بسرعة ليغيب خلف كثبان الرمال.

كانت رحلته محفوفة بالمخاطر، لم أتصور أنه سيعود سالما، فالذاهب لكثيب القوز كمن يقرر الانتحار، لاسيما أن الجفاف الذي أصاب الأرض ضرب بسطوته؛ فلم تعد تنبت الأرض نبتة واحدة، وأصبحت امرأة عاقرا، ولكنه عاد يا "مغيث"، عاد في يوم ماتت فيه الشمس، بعد أن اختفى صوت المنادي على الاجتماع في الرمال، وغاب هناك تحت الثرى، جمعت أعواد الرمث وأضرمت النار بها، وبينما بدأت تلتهم الحطب بشراهة، كنت أنظر باتجاه الغرب حيث ذُبحت الشمس، الدماء تملأ السماء حمرة. كنت أشاهد رأس خيمة سيط الله يظهر من بين أقواس الرمال الحمراء، سرحت بخيالي للحظات، رأيت ثعابين تسقط من السماء تنطلق مسرعة باتجاه خيمة سيط الله لتلتف على رقاب

الناس، بينما ترتفع الرمال عاليا، وتضرب أعلى الخيمة لتغطيها تماما، أعادني من ذلك الشرود قلبي وهو يسقط في جوفي عندما سمعت نحنحة وصوت والدك:

ها قد عدت كما وعدتك يا "هاجعة".

لم أتمالك نفسي، ارتجف جسدي، سقطت دموعي على حجري، نهضت بالتفاتة، ركضت عانقته طويلا، كان كعود يابس كنبته اقتُلعت لتوها من تربتها في طريقها للجفاف. وفي ظل هذا اليباس، نظرت في وجهه الخالي من الحياة، وقلت وأنا أتحسس شفتيه بأصابع يدي:

ما بك؟

كان والدك كمن يحمل الموت في خرجة، جاء منهكا، وعلى الرغم من ذلك قال بصوت دافئ: بعد كل هذه السنوات القاحلة، ستحبلين الليلة، ستحبلين، المرأة يا "هاجعة" تجدب كالأرض تماما، تحتاج لمن يمنحها الحياه لتنبت، وأنا سماؤك الغائمة، أتيت لك بالمطر، سأروي جسدك، وأبذر فيه بذره من صلبي، كي ينبت لنا ولدا يرث اسمي، اليوم سأنتصر على الموت وسأترك قطعة مني في هذه الدنيا، حتى وإن

غادرت الحياة هذه الليلة، سيولد للأرض والسماء ابن سيتخلق من الماء.

نظرت في عينيه مليا، كانت حمراء كالشمس المذبوحة على صفحة السماء، لم أفزع لذلك بقدر ما فزعت من تلك النظرة الغريبة التي رمقني بها، نظر لي بعينين مهتزتين قلقتين كنظرات المغادرين، لقد قدم للتو، إلا أنني شعرت من خلال نظراته أنني أودعه، ولكن ما لم أستطع فهمه حتى اللحظة، كيف أنني كنت أستطيع النفاذ لداخله ما أن أحدق في عينيه الحمراوين، كنت أرى عالمًا مزدحمًا بالناس والأحداث، رأيتني بداخله وأنا أرعى قطيع الماعز عندما شاهدني لأول مرة في الطرف الشرقي من قاع بني مرة، حيث كان ذلك اللقاء طريقا للزواج، رأيته عندما غابت به ناقته خلف كثبان الرمال في رحلته لكثيب القوز، فقد توقف ما أن تأكد أن لا أحد يتبعه أناخ ناقته واستلقى على ظهره على الرمال ينظر للسماء يحدق في ذلك الفراغ الأزرق الآسر، أخرج من وعاء مصنوع من الجلد دهن الماعز ودهن به ركبته اليمني، وشد عليها بقماش وخيوط من الصوف، فقد شعر بألم يسري بها، ومن ثم تلفع الشقاء واقتاد ناقته في طرق الأمل، وصل قبل مغيب الشمس لكثيب

القوز، هاله المشهد المهيب، جبل من الرمال على شكل هرم يخرج من داخله، صوت هادر كصوت حنين الناقة يطوف بالمكان يسيطر على سامعه تماما، يقتاده لحافته الرملية وهناك يفعل به ما يشاء، الخلاء الواسع وكتل الليل السوداء والصوت الهادر الخارج من كثيب القوز، جعلا الناقة تجفل تقف مستثارة تحاول الهرب، وبينما يحاول والدك الإمساك بها لتهدئتها، تسمر مكانه وهو يشاهدها تتحول إلى حجر أصم، نعم، تحجرت مكانها، عندها تراجع والدك للخلف يكتسيه الهلع، وجثى على ركبتيه قال بصوت خائر مرتجف:

ارحم قاصدك يا عظيم الشأن.

وأخذ يردد تلك الكلمات بهمهمات متلعثمة، وبصوت مخنوق بدأت الرمال تتكالب عليه، حتى غطت نصف جسده الأسفل، وعندما انتبه لذلك، أخرج سكينا حادة وغرسها في ذراعه محدثا جرحا نازفا، سال الدم على الرمال حتى تراجعت، واستطاع أن يتحرر من سطوتها، استطاع أن يستجمع قواه من جديد وصاح بصوت قوي:

يا عظيم الشأن، قطعت كل تلك المفازات لأجل أن تمنحني الولد؛ فلا تخذلني!

لم يمضِ وقت طويل حتى انشقت رمال كثيب القوز، وخرج من بين دوامه من الرمال رجل يمتطي حصانًا أسودَ، قال وهو ينظر لوالدك بعينين حادتين ويناوله نبته يابسة:

كل هذه النبتة، ولا يطلع عليك الصبح إلا وقد ضاجعت زوجتك، وعندما شاهد والدك ينظر باتجاه الناقة المتحجرة قال:

ما أن تلمس ناقتك ستعود كما كانت.

ثم عاد لداخل الكثيب نافذا من خلال الرمال دون أن يخلف أثرا.

انتفض جسدي عندما رأيت بداخل والدك مجموعة من الرجال ينظرون له عندما امتطى دابته ويقولون بصوت واحد:

- ستموت عندما تذبح الشمس، ستموت الليلة، رأيته ينظر لهم بعينين فزعتين، ولكنه انطلق كالريح يسوق ناقته قاطعا المفازات حاملا العشبة.

انتبهت إليه ممسكًا بذراعي ويهزني: ما بك يا "هاجعة"! هيا لا وقت لدينا، أمسكني من معصمي وتناول عودا مشتعلا من النار ومضى يسير مسرعا وأنا أتبعه، حتى توقف أمام سفح الجبل، قال عندما ناولني المشعل:

– خلف هذا الجبل يسكن خدام الشمس، سيخرجون يوم تموت، كان قد تسلق الصخرة ومد يده ناحيتي ليسحبني إليه: يا "هاجعة" إذا خرج خدام الشمس فلا تجزعي، اذهبي "لمهلاليل" بعد أن تصنعي دمية أم الغيث، ارقصوا وتضرعوا حتى تمطر السماء وإن لم يحدث، سيتراءى لكم ضياء الشمس من خلف هذا الجبل، ويعود خدام الشمس إلى محبسهم، أما إن لم تخرج الشمس فإنهم سيفنون القبيلة عن بكرة أبيها، سيقطعون الرءوس ويمزقون الأجساد، سيسيل الدم في الشعاب كسيل هادر كان يشير للمضارب عندما قال بحزن بالغ سيموت جميع القبيلة، أخذ جرحه ينزف بشدة بعد أن سقطت العصابة التي يلف بها ذراعه، كنا حينها قد وصلنا لقمة الجبل، جلسنا على صخرة ملساء مستوية تطل على قاع بني مرة، في الأسفل تختفي المضارب وكأن الشفق الأحمر ابتلعها، الليل يلف المكان حينها، شعرت بانعزال تام عن العالم، وتوحدت مع الصخور، هناك قضينا ليلة حميمة كي نأتي بك من عالم الظلام، من أعلى الجبل، سقطت صخرة كبيرة كادت أن تصيبنا بأذى، صوت ارتطامها تحول لأحرف مفهومة، كان

صوت الارتطام الأول عبارة عن حرف ميم، والثاني واو، والثالث تاء، ثم تهاوت في الفراغ، قلت: هل سمعت يا "ثاقب"؟ هل سمعت؟

لم يعرني انتباها، كان العرق يتصبب منه وهو مُكوَّم بين فخذي، شعرت بالحياة تدب داخلي قبل أن يسقط جثة هامدة، انزلقت من تحته بصعوبة، وقد اصابني الهلع، هززته، ناديته، احتضنته، كان الموت قد تمكن منه، ارتديت ملابسي على عجل، وانطلقت بسرعة الريح عائدة لخيمتي تطوقني نسمة هواء من كل جانب، تدور حولي، ترفع ردائي، وتنسل من بين فخذي، لتخرج من تحت نهدي وتمضي بعيدا، لحظتها انضم إليّ كلبنا "ساري" يشاركني العدو وينبح من حين لآخر، شعرت بالطمأنينة عندما وصلت لخيمتي، وعلى الرغم من ذلك كنت انتفض كالمحموم، وأنا أذرع الخيمة ذهابا وإيابا، حتى استقر بي المطاف جالسة أمام مكان النار التي غدت همودا، ربض الكلب ساري بجواري، ضرب بذيله التراب وعوى كثيرا ونظر لي بعينين مهتزتين، الهدوء يسترخي بين الخيام، حمرة الشفق ازدادت، لمحت من بعيد ضياء نيران حول خيمة سيط الله، يبدو أن الاجتماع لم ينتهِ بعد، تمددت على

الفراش أسترجع الأحداث، من هم الناس الذين يهتفون في وجه والدك:

- ستموت، ستموت. لماذا قرر الموت في أعلى قمة جبل، أكان يرجوا الخلاص كما حدث لسيدنا إسماعيل عندما منح الحياة على قمة الجبل، أم شاقه حديث المسيح عن النهايات وهو يقف على قمة الجبل، لا أعلم، ولكن حتما أنه كان يعي موته، ولكنه نسي أو تناسى، تلك النبوءة التي تقول لا تمارس الجنس فوق الجبال!

تبرز أمامي ملامح وجهه وهو ينظر لأولئك الرجال المخبرينة بالموت، كانت ملامحه جامدة، بل ساذجة لا تحمل أي معنى. في الصباح تحققت نبوءة والدك ولم تشرق الشمس!

2

لم يبرح "أنف الكلب" مكانه، بل ظل واقفا تحت شجرة السمر العملاقة، يرقب الجموع المتفرقة يفكر لماذا أبقى عليه الزعيم ولم يذكر اسمه ضمن قائمة المشوهين الذين سيتم دفنهم قبل مغيب شمس هذا اليوم، وبعد أن نظر مليا لرءوس الجبال والكثبان الرميلة الممتدة شرق المضارب، قعد على آليته في ظل شجرة السمر العملاقة التي اهتزت أغصانها لفترة طويلة ما أن قرر أنف الجلوس تحتها، غطى وجهه بعمامته لتظهر عينيه اللامعتين وكأنهما عيني ذئب جائع، لم يمنعه الصقيع الذي بقي على الرغم من توهج الشمس من الجلوس في الظل، تأمل المكان حوله ونظر لمجموعة من النمل تصعد جذع السمرة العملاقة في خط مستقيم، قال وهو يتفحصها جيدا:

- لماذا لا توجد نملة مشوهة؟! النمل يتشابه تماما، بل يتطابق، لماذا لم نكن نحن معشر البشر كذلك أيضا!

استلقى على ظهره، وشبك يديه خلف رأسه، نظر لأعشاش الطيور المتناثرة بين أغصان الشجرة: حتى الطيور من الفصيلة نفسها تتطابق. ثم أخذ يفكر في أحوال القبيلة والبئر الوحيد الذي قارب على الجفاف والإبل الهزيلة والأغنام الضامرة ثم قال:

- "مشكلة الإنسان في تفرعاته، نحن نحيا ونموت، كهذا النمل تماما، ونبحث عن الغذاء مثله، ونتكاثر مثله أيضا، ولكننا ننشغل بعلاقات وتفاصيل كثيرة، نبحث من خلالها عمّا يسمى بالسعادة والطمأنينة، الشعور إذن معضلة من معضلات البشرية، وهذا الشعور هو ما جعلني أدرك إنني أملك أنف كلب".

ثم أخذ يفكر بعلاقته مع شجرة السمر العملاقة، تلك العلاقة الغريبة التي لم تحدث أبدا بين كائنين من جنسين مختلفين، وهو ذاته لا يفهم سر هذه العلاقة وهذا الارتباط. قال لنفسه: ربما أن الأماكن والكائنات تمتلك إحساسًا ولكنه حتما ليس كأحاسيسنا نحن، ربما هذه الشجرة لها ذاكرة تعرفني من خلالها تميز ملامحي، وإلا لما تهتز أغصانها كلما جلست تحتها، لماذا تخضر أوراقها، ربما أشبه من بذرها!

يقول "مهلاليل" إن عمر هذه الشجرة ألف عام! لا أعلم من أين أتى بتلك المعلومة! ولكن "مهلاليل" يعرف كل شيء.

واستغرق يفكر كم تعاقب عليها من البشر ومن الأيام والليالي، هرمت هذه الشجرة وهي تقف مكانها ساكنة، لاشك أنها شهدت أجيال وأجيال من البشر، عندما كانت نبتة صغيرة في طور النمو لا يتعدى طولها مترًا واحدًا، لاشك أنها كانت تتمايل مع الرياح كما تفعل كل النباتات، تتمايل بغنج كصبية فاتنة تفرح أشد الفرح بالمطر المنهمر، ولكنها اليوم تبدو مثقلة متعبة جذعها المتشقق، وأغصانها الأربعة الرئيسة تبدو منهكة، في العادة لا ينبت السمر في الأماكن الباردة، ولكنها تمردت على قوانين الطبيعة لتظل وحيدة في صحراء حسمى القاحلة.

في تلك الأثناء، تحركت نسمة هواء من أسفل الوادي بالقرب من البئر، ارتفعت عاليا طافت على بيوت الشعر المتناثرة، جالت في القاع ثم انحدرت باتجاه شجرة السمر العملاقة، وأنف الكلب مازال هناك مستلقيًا يضع قدما فوق الأخرى، يفكر كيف سيترك هذه الشجرة إذا ما قرر الرحيل، تمعن في أغصانها السوداء، وعندما رأى الصمغ يقطر

من أحدها، خُيِّل إليه أنها تبكي، تساءل هل تبكي الأشجار لأجل البشر؟!

هل تبكي لأنه سيرحل احتجاجا على قرار الزعيم؟

كل صحاري العالم هذا اليوم تضيق على احتواء حزن "أنف الكلب"، ذلك أنه لم يعِ أن سبب استبعاده من الدفن ليس لأن الزعيم ينظر له بأنه غير مشوه، بل لأنه غدى شابًّا بالغًا ولا يجوز قتله، لأن من يدرك الموت ويشعر به ويفهم غاياته سيكون خروج روحه مؤلمًا جدا، ولأن الأرواح البالغة الماكثة زمنًا في الأجساد لديها تشبث بالحياة، ومن الصعب خروجها، وربما لو خرجت تعود على المضارب بالسوء.

ارتفت نسمة الهواء عاليا، لامست غيمة تائهة في السماء ثم نزلت على مهل تتماوج وتتلوى، وعندما وقف أنف الكلب ليغادر، مرت النسمة بين غصنين صغيرين، فسمع صوتًا أنثويًّا رقيقًا يتغلغل داخله:

- لا تدع الزمن يتجاوزك يا "أنف"، تذكر أن الأحياء يقتاتون على تفاصيل الموتى، اذهب وابحث عن الحياة، عِشْ كما يفعل الآخرون، اقتلع عقلًا من رأسك وازرع الأمل في روحك.

التفت حوله، كان كل شيء صامتًا، سوى غصنين صغيرين يهتزان أعلى شجرة السمر العملاقة، وقف للحظات حائرا إلا أن نشوةً داخلية اجتاحته جعلته يرتمي على الرمال، ويتدحرج كصبي مستغرق في اللعب. مازال الصوت الندي يسري داخله، يجلو كل شيء قميء، جلس يرسم على الرمال بعود رمث يابس أشكالًا متنوعة، رسم يمامة عائدة لعشها. رسم جدول مياه وبئر صغيرة. بينما روحه تتجول هناك بعيدا بين شجيرات الشيح والربل، لأول مرة يحب اسمه "أنف"، كم هو أنيق هذا الاسم "أنف".. "أنف" رائع، أنا "أنف" أنا "أنف" الك لل بب.. لا يهم أي أنف، ولكنه جميل عندما يحمله هذا الصوت الفاتن، فز واقفا وفرد ذراعيه وأغمض عينيه وأخذ نفسا عميقا وقال:

- يااه، ألهذه الجملة مجهولة المصدر كل هذا التأثير! لا، ليست مجهولة المصدر، إن السمرة الخبيرة هي من قالتها، ثم أطرق قليلا وقال بحسرة ماذا لو كان كل ذلك وهمًا!

وبعد أن هدأ وأتكأ على مرفقه، نظر باتجاه شجرة السمر، فكر في معنى الجملة.

"لا تدع الزمن يتجاوزك"

"الأحياء يقتاتون على تفاصيل الموتى"

لم يدرك ما تعنيه إلا أنه شعر بارتياح، شعر بالحياة تدب في جسده، شعر بالنشوة. تكاد تجعله يطير برفقه طيور القمري، يحلق في البراح مقدما على الحياة.

3

على تبة مرتفعة، وقف الأهالي يتقدمهم "سيط الله" و"مهلاليل" ينظرون باتجاه الشرق، باحثين عن قرص الشمس، أمر مخيف يا "مغيث" أن يأتي النهار بلا شمس وبلا ضوء، أن يأتي على هيئة ليل مظلم، ماتزال السماء تحتفظ بحمرتها القاتمة، وثمة زهرة ضوء لا يعلم مصدرها، تقاوم الظلام وتمنحنا رؤية لا بأس بها، التفت "سيط الله" بجسمه للجموع الفزعة، نظر مليا للناس الذين غابت ملامحهم، وبدوا كأخيلة سوداء متلاصقة، نظر للمضارب، وللسماء الحمراء، ثم أطرق قليلا وقال دون أن يرفع رأسه:

أتعلمون ما معنى أن نفقد الشعور بالزمن؟

كان يبدو كتمثال معدني على هيئة رجل يرتدي عمامة وقميصًا تحركهما الريح بلطف وتصفر من تجاويفه:

أن نفقد الشعور بالزمن، يعني أن نكون معلقين بين الموت والحياة كأجنة في بطون أمهاتنا، هكذا ستصبح حياتنا!

قطع كلام "الزعيم" صوت هادر خرج مرتجفًا من حنجرة أحد الأجساد المتلاصقة: الجبل.. فوق الجبل.

نظروا جميعًا بالاتجاه الذي أشارت إليه، حيث الجبل الذي يحتضن جثة والدك حيث أشارت "دايعون"، كانت تبدو أخيلة لأناس قصار القامة يحملون رماحا طويلة أعدادهم كبيرة جدا يتزاحمون على قمة الجبل.

ستصبح الأرض حمراء كالسماء، قالت "دايعون" جملتها وهوت على الأرض لتبدأ الصياح وتشاركها بقية النساء البكاء، الأطفال الصغار لاذوا بأجساد أمهاتهم، ووقف الرجال في ذهول غير مصدقين ما جرى.

قال "سيط الله":

ظهر عباد الشمس، إنها نهاية الزمان.

وجثى على ركبتيه متسمرا مكانه. صاح "مهلاليل" بعد أن سرح نظره نحو الجبل:

- النار، النار..

التفت التفاتة خاطفة ونظر بعينين متعبتين للزعيم:

- نعم، هي النار.

ورفع عصاه عاليا ملوحا للجموع: هيا، فليذهب كل منكم ويشعل النار أمام بيته، أما أنت يا "سعد الأفعى"، فأحضر لي عشرة من الخراف. تحرك الناس بحيوية وكأن الحياة دبّت في أجسادهم للتو، انطلقوا مؤملين أنفسهم بالنجاة، وما هي سوى لحظات حتى اشتعلت النيران وانتشرت رائحة الحطب في المكان.

استلقى "سيط الله" على التبة وقال مخاطبا "مهلاليل " بصوت خائر: لن تجدي النار نفعا أيها الحكيم!

جلس "مهلاليل" بجوار الزعيم، ونزع قَلَنسوته الصفراء ليكشف عن شعر أبيض كثيف: الشرارة الأولى للنار سقطت من الشمس، ومنذ ذلك الحين لم تنطفئ. سكت قليلا ونظر لمكان الشمس وأضاف: شهوة الاحتراق وألسنة النار المحترقة ستعيدان الشمس لمكانها.

انصرفت بعد أن غادر جميع الناس، وتركت "الزعيم" برفقة "مهلاليل" يتجاذبان أطراف الحديث على التبة، تذكرت حينها حديث والدك عندما أوصاني بصنع دمية أم الغيث، وقبل أن أبدأ صنعها، جمعت ما كان في الخيمة من أعواد الرمث، وجذور العرن المتيبسة، وأشعلت فيهما النار، وعلى الضوء الصادر منها، جلست أنسج الصوف، صنعت دمية بديعة على هيئة امرأة عجوز، ألبستها ثوبًا أسودَ، وحلي متنوعة، عصبت رأسها بعصابة حمراء، حملتها بين يدي كما تحمل الأم طفلتها، وأسرعت الخطى باتجاه التبة، توقفت في نصف المسافة، وجثيت على ركبتي، وألقيت الدمية على الأرض، وغرست أصابع يدي في الرمال، سرت رعشة في جسدي وانقبضت روحي، بكيت كثيرا يا "مغيث"، شعرت أنني أنصهر مع الرمال، لم يعد لذاتي وجود، لم أدرك أن والدك مات، ولن يعود أبدا سوى في هذه اللحظة، لا أعلم لماذا لم أحزن عليه من قبل، ربما الأحداث المتتابعة لم تترك لي فرصة لذلك، لكنني شممت رائحته قادمة مع نسمات الهواء الباردة، لا شك أنه مازال ملقى على الصخرة الملساء فوق الجبل، دوت كلماته الأخيرة في رأسي، كانت طازجة كأنها لأول مرة تقال:

- اصنعي دمية أم الغيث يا "هاجعة".

كنت أعلم أن هذه الدمية تصنع لطلب المطر، ولكن لماذا طلب مني صنعها لاستعادة الشمس؟

نهضت بتثاقل، أمسكت الدمية وسرت بخطوات مرتبكة حتى وصلت التبة، الناس هناك يقفون متحلقين حول "مهلاليل"، ينظرون إليه بدهشة وهو يطوف على الخراف، ويتمتم بكلمات غريبة، توقف وأشعل غليونه ونظر لـ"سعد الأفعى"، قال:

- خذ هذه الخراف، وإذا وصلت لسفح الجبل، أشعل النار في صوفها، ستصعد الجبل باحثة عن النجاة فزعة من النار، دعها تركض بكل قوة وإذا تخاذل خروف اضربه بالحجارة دون رحمة.

انطلق "سعد الأفعى" دون أن ينطق بأيّة كلمة، يسوق الخراف أمامه، تتبعه نظرات فارغة من المتجمهرين، بقي الزعيم "سيط الله" و"مهلاليل" محاطين بالناس، في تلك الأثناء، تجاوزت الصفوف ووقفت بينهما، رفعت الدمية عاليا، وبشكل غير إرادي أخذت أتمايل وأترنّم بأهازيج أم الغيث هكذا:

- "يا أم الغيث أغيثينا.. يَلِيَ رأس راعينا"

انضمت لي بعض النسوة، تعالت أهازيجنا، انفصلت أرواحنا عن أجسادنا، حلقنا في السماء نرفرف فوق الشمس التائهة في الفراغ، انفصلت أنا عن بقيه النساء، وتقدمت باتجاه الشمس، عقدت حولها عقدة بحبال الصوف وسحبتها خلفي، رفرفت بقية الأرواح خلف الشمس كفراشات تتزاحم حول ضوء قنديل، من الأعلى، رأينا أجسادنا الراقصة هناك تتمايل على الأرض، تتقاذف الدمية فيما بينها، تدور في مساحة ضيقة كأشباح متخبطة، وفي الناحية الأخرى، شاهدنا الخراف المحترقة تبدو كشهب مشتعلة تصعد الجبل بسرعة كبيرة، وخدام الشمس ينحصرون في دائرة صغيرة أمام هجماتها، الشمس المشتعلة تتدحرج بسلاسة، بينما يزداد الظلام أمامي حتى أصبحت لا أبصر شيئا، ولم أشعر بنفسي إلا و"مهلاليل" يسكب الماء على وجهي، كنت ملقاة على التبة، وفي يدي دمية أم الغيث، حولي دائرة من الناس، ضوء النهار يعم الأرض، تظهر الشمس من خلف عمامة "سيط الله"، نهضت بتثاقل، جسدي ثقيل جدا، خدر يسري في أطرافي، وصداع يكاد يقتلع رأسي، عندما أفقت، كان "سعد الأفعى" قد عاد للتبة قادما من سفح الجبل، نظر إليه "مهلاليل" وقال باسما، أحسنت

صنعا. ثم اقترب منه وربت على كتفه وقال: كنت واثقًا من أنك ستؤدي المهمة على أكمل وجه. وقبل أن يستدير "مهلاليل" قال "سعد الأفعى": لست أنا من يستحق الشكر، الفضل يعود ل "ثاقب".

صرخت في وجهه دون شعور: "ثاقب" مات البارحة على الصخرة الملساء.

أقسم "سعد الأفعى" أنه رأى والدك يسوق الخراف نحو الأعلى، ويوجهها كي تحاصر خدام الشمس، وقال أن "ودود"، ذلك الشاب الطائش، رأى والدك أيضا خلف الجبل. وعندما ذهبنا للجبل باحثين عن الحقيقة لم نجد جثة والدك على الصخرة الملساء وبعد بحث طويل، وجدناها داخل تجويف صخري وقد أغلق عليه بالحجارة، لم أستوعب ما جرى، قال ساجر الشيخ:

من الأفضل أن ننزل الجثة وندفنها في المقابر الغربية.

ولكن "مهلاليل" رفض ذلك بحجة أن ما حصل لثاقب هو جزء من المعجزة الكبيرة.

تنهدت "هاجعة"، وحملت قطعة اللحم بين يديها وهمست: هذا اليوم ستتخلص من قطعة اللحم هذه يا "مغيث"، ستصبح روحا تحلق في البراح، تنام على قمم الجبال، ستساعدك الخبرات التي اكتسبتها من عملية الولادة في التعامل مع الموت بشكل جيد، لا تخشَ الموت أبدا؛ إنه عودة للأصل.

4

ساعات العصاري بائسة مملة، تشبه كثيرا ساعات الاحتضار، لم تطق العجوز "ساكبة الليل"، تلك اللحظات التي تسبق غروب الشمس خلف كثبان الرمال، فكانت لطيلة أربعين عاما، تلزم خبائها في ذلك الوقت بالذات، تكره أن ترى ظلال الأشياء، تتمدد كأشباح عملاقة. وأكثر ما تكره أن تشاهد ظلها بين تلك الظلال، وقد تمدد أمامها كتلة سوداء برأس كبير وقرنين طويلين وجذع كجذع الناقة، كانت تهرب من هذا الشبح الذي يتقمص دور ظلها فلا تخرج سوى في الليل.

أشعلت "ساكبة الليل" النار داخل خبائها، غلت أوراق الشيح البري، انتشرت الرائحة المنعشة في المكان، فأخذتها إلى تلك الليلة التي قدمت فيها إلى قاع بني مرة لأول مرة.

كانت شمس ذلك اليوم مطفأة، قرص أحمر اختفى نصفه خلف غيمة عابرة، تلونت الهضاب بلون الشمس، وبين أشجار الرمث الكثيفة مشت "ساكبة" بخطى وئيدة، تسوق ناقتها خلفها، وقد وضعت جثة زوجها "صعب" على محفة تجرها الناقة، كانت متعبة جدا وتقاوم السقوط بجرعات من العزم، محاجر عينيها جفتا فبدت كصحراء قاحلة تحتضن الموت، وجهها المستدير شاحب كحنظلة ملقاة منذ زمن تحت وهج الشمس، لم تعد قادرة على المسير، باتت تترنح، تكاد تسقط في متاهات العالم الشاسع، إلا أن رءوس بيوت الشعر المنصوبة خلف التبة أعطتها جرعة من الأمل، توجهت للغرب، وأناخت ناقتها على حافة منحدر رملي، هبدت بجسمها على الأرض، وأسندت ظهرها على الناقة، أرخت ساقيها وذراعيها، سرى خدر في جسمها، أغمضت عينيها وراحت في سبات عميق في محاولة للهرب من قبضة الزمن، وعلى الرغم من ذلك، كانت الأيام تمضغها بشراهة، تبصق لحظاتها على أروقة الماضي، استيقظت بتكاسل، نظرت لقرص الشمس المتوهج في كبد السماء، لا تعلم كم دام سباتها إلا أنها بدت أفضل حالا، نزعت عصابة رأسها، فتدلى شعرها الذهبي على كتفيها،

وقفت تنظر لجثة زوجها تتأمل ملامحه قبل ثلاثة أيام فقط، كان هذا الجسد يشع نشاطا، لولا أن خللا حدث بينه وبين الكون أدّى لسكونه بعد أن سقطت الروح في بئر الزمن لتحبس هناك.

مات "صعب"؛ لأنه لم ينصت لها، فكم من مرة حذرته وقالت بجدية: الإبل يا "صعب"، شياطين يجب أن تتعامل معها بحذر.

كان يوم زفافهما يوم عاصف، كانت الريح تحمل الرمال عاليا وتطرحها على الأرض، يتحول الغبار لدوامات غاضبة، تدور في المكان، قالت "ساكبة" وهي تحرك لجام ناقتها لتتحرك على مهل: يا "صعب"، ستعوقنا الريح عن مواصلة السير نحو قاع بني مرة، ليتنا نمكث هنا حتى تنتهي العاصفة.

حرك "صعب" بعيرة "سعدون" ليقترب منها، قال بلهجة عميقة دافئة: بجوار تلك الصخرة الكبيرة نبيت ليلتنا هذه، وفي الصباح نواصل السير.

ولكن البعير سعدون حاول مداعبة الناقة، أمسك رقبتها بفمه، فثارت وقفزت لتسقط العروس "ساكبة" على الأرض، أمسك "صعب" بلجام بعيرة سعدون، كان الزبد قد خرج من فمه، وبدا

هائجا إلا أن "صعب" بخبرته استطاع أن يسيطر عليه، وانهال عليه ضربا كاد أن يقتله، لم يسبق لسعدون أن قام بمثل هذا التصرف من قبل، كان هادئا وديعا ولأول مرة يضربه "صعب" بهذه القسوة، على الرغم من أنه يقتنيه منذ ثلاثة سنوات، منذ أن كان حوارا يركض في المراعي بوداعة، اقتاده نحو الصخرة، جائه صوت "ساكبة" كانت تنفض التراب عن ردائها الأسود المطرز بخطوط حمراء: إنها كائنات مخلوقة من الشياطين لا يؤمن جانبها.

ابتسم "صعب"، ونظر باتجاهها بعد أن أناخ سعدون بالقرب من الصخرة وقال مازحا: ما بال العروس تتحدث على طريقة الجدات.

لم تعرف "ساكبة" ما تقوله، ومضت في صمت للناحية الأخرى من الصخرة، وأناخت ناقتها هناك لتكون مصد للرياح، نظرت من خلف كتفها فشاهدت "صعب" يجمع أعواد الرمث، ومع قدوم الليل كان قد أشعل النار وأسند ظهرة للصخرة. يكشف ضوء النار المنعكس عن وجه بملامح وديعة، شاربه الكثيف ولحيته الطويلة

أعطياه مظهر الملاك، أفكاره تمتزج مع دخان النار، تتصاعد قطع سوداء تظهر من بينها الفكرة المسيطرة عليه منذ صباه:

- "سأموت عشية زواجي".

ولكنه طرد تلك الفكرة بهدوء، ليعود وينظر لزوجته التي أخذت تحدق في النجوم، كانت تقفز من نجمة إلى أخرى، تسبح في العتمة كجنين في رحم والدته، بدت كأنها طفلة في عيني "صعب" عندما تخطته وهي تركض. جسد نحيل برداء أسود مطرز بخطوط حمراء، تضع على رأسها عصابة حمراء، عيناها الواسعتان يزيدانها ألقًا، تضع وشمًا عبارة عن ثلاثة خطوط على ذقنها، وعلقت في إحدى فتحتي أنفها قرطًا ذهبيًّا، يتدلى على خدها. كان يتأمل عروسة الفاتنة مبتسما، غابت في العتمة، وعادت تحمل في يديها إناءً مليئًا باللبن، وضعته على الأرض، وقامت تحيطه بدائرة رسمتها على الرمل، سألها "صعب" بعد أن دس جسده في مرقده:

- ماذا تصنعين يا أجمل الصبايا؟

قالت باهتمام بالغ:

- أعرض اللبن للساجور.

وأشارت بيدها للسماء باتجاه نجم متوهج، وأضافت بلهجة واثقة:

- الساجور يا "صعب" نجم يظهر كل خمسمائة عام لليلة واحدة فقط، وإذا تعامد على شيء وشربت منه فإنك تملك سر الحياة!

أخذ "صعب" يتأمل السماء، ينظر للنجم المتوهج. لأول مرة يشاهد نجمًا بهذا الحجم وهذا التوهج، أعاد نظره لزوجته "ساكبة" وقال: من أين لكِ بهذه الحكايات. هيا تعاليْ بجواري. ووضع راحة يده على الفراش بجواره.

- أخبرتني جدتي عن هذا النجم، وكيف حصلت المعجزات لمن شاهدوه. صمتت قليلا ثم قالت بدهشة:

- انظر! انظر، إنه يتعامد على إناء اللبن.

تدور الريح حول الصخرة الكبيرة، تنسل على الأرض، تحرك طرف ثوب "ساكبة"، تطفئ النار، يتصاعد الدخان عاليًا.

"سعدون" ذرف كثيرًا من الدمع، لم يؤلمه ضرب "صعب" له بقدر ما آلمته الإهانة أمام الناقة، تكاد تنفجر مرارته من الغيظ، ينظر باتجاه الصخرة بحذر فيرى النار وقد خمدت.

تمددت "ساكبة" بجوار زوجها، وفي الأفق تظهر النجوم بأشكال مختلفة، وتتدلى السدوم من السماء كعناقيد التمر. وتتساقط الشهب على رءوس الشياطين، استطاع سعدون أن يتحرر من القيد بسهولة، سار نحو الصخرة بحذر، نظرت إليه الناقة بوجل، استشعرت الكارثة، ترجوه بنظرات متوسلة أن يعود أدراجه، ولكنه واصل سيره، اقترب من المرقدين، في المرقد الأول اشتم رائحة الأنثى التي يعرفها جيدا، حيث تبدو "ساكبة" ككتلة من الأحلام تضم جسدها وترخي خدها على الرمل، اقترب من "صعب"، شم رائحته التي يعرفها جيدا، ولكنها هذه المرة كانت رائحة ممتزجة بلذة الانتقام، وقف فوق صعب الغاطّ في سبات عميق، وألقى جسده الضخم، ألقى كل ثقله على صدر صاحبه، حرك جسده يمينا ويسارا، ضغط بكل قوة للأسفل، حتى سمع صوت عظام "صعب" تنسحق تحته، شم رائحة الدم، وقف في اهتياج شديد، ونزل بجذعة بكل ما أوتي من قوة على صعب، استيقظت "ساكبة" في تلك الأثناء ذهلت مما رأت، لم تصدق عينيها، أصيبت بالدوار، ولكنها قاومت وركضت دون وعي للناقة وأخرجت من الخرج المعلق على ظهرها خنجرًا، وفي سرعة متناهية

غرست نصله في عنق البعير سعدون، شعر بشيء يخترق جسمه، أحس بالدم يتدفق كنهر جارٍ، قام يخور وهرول مترنحا بعد أن سكب إناء اللبن وغاب في العتمة.

المعجزات تحدث إذا جرى منا اليقين مجرى الدم، وأيّة معجزة هذه و"صعب" جثة هامدة. فرت روحه من جسده المهشم، تقفز فوق قمم الجبال وتطير بعيدا مع الريح، بينما تميل "ساكبة" على الجسد الغارق في الدماء، تتأمل ملامحه. لكل أنثى روح ذكر خلقت لها، وهي وجدت تلك الروح في جسد صعب، تنبت الروح في الأجساد تشكلها على هيئتها، يمتزج دمع "ساكبة" بدم "صعب"، يُظلم الكون في عينيها، تضيق الحياة، تفقد ارتباطها بالزمن، تشعر أنها علقت في فجوة سوداء قاتمة، كيف لها أن تحيا دون "صعب"؟! كيف لهذه الملامح أن تذوب ولا تظهر سوى في طيف الذكريات؟! كيف للأحلام التي غرستها البارحة قبل أن تنام أن تموت بهذه السرعة! لذا قررت أن تحتفظ بجسد "صعب"، لن تدعه للأرض الجائعة.

قالت بحسرة:

- انسكبت روح صعب من جسده كما انسكب اللبن من الإناء.

جاءت الشمس بيوم جديد، ساح النهار فوق جسد الصحراء، وفي ظل الصخرة انتهت "ساكبة" من صنع محفة صنعتها من أعواد السمر وسعف النخيل، وضعت فوقها جثة "صعب"، وأحكمت ربطها على جذع الناقة، وراحت تقتادها، تهيم بين الكثبان الرملية تتبعها الناقة تجر جثة "صعب".

*****

لطالما أيقن "صعب" أنه سيموت ليلة زفافه، لازمه هذا الهاجس منذ أن وعي الدنيا، قضى حياته كفراشة تهرب من العتمة لتحترق في النور، حاول أن يطرد هذا الهاجس في ليلة زفافه إلا أنه بات كمن يتجهز للموت، عندما نصبت بيوت الشعر في تلك الليلة، زفت العروس في هودج على ظهر البعير سعدون، تبعتها نساء يغنين ويصفقن وأطفال تتقافز بفرح حول الموكب. كان "صعب" ينظر للموكب بينما يتلقى التهاني من المدعوين.

- منك المال ومنها العيال.

صرف نظره نحو المذبح، شاهد بعض الإبل تجهز للذبح لتقدم وليمةً رئيسة لحفل الزواج، يوقن أن الإبل كائنات تدرك مفهوم الموت، تخشاه بشكل غريب، فكثير ما تأمل ردت فعلها عندما يأتي الدور على أحدها للذبح. كان البعير المساق نحو المذبح يخور بجنون، ينتفض، يسمر قوائمه على الأرض بكل قوة، خواره مرعب كأنه يستغيث، يستجدي، عيناه تدمعان ليتحول لكتلة من الرعب.

كما أنه لا تفارقه أبدا تلك الحادثة التي شاهدها عندما كان طفلا في عامه العاشر، حيث كانت حديث القبيلة لسنوات طوال لبشاعة ما حدث، وللخطأ الفادح الذي ارتكبه والده عندما أحضر حبالًا من الصوف، وقيّد قوائم الناقة الوالدة للتو، بحيث إنها لا تستطيع حتى الوقوف، حوارها الصغير يلهو، يدور حولها، يترنح، يسقط، يقف، يحاول السير بتوازن، تنظر إليه أمه بنظرات حانية حنونة، حتى إن حل المساء، وتعب الصغير، فراح يلتصق بأمه، دس جسده محاولًا الاختباء من العتمة، طوقته هي برقبتها، وعلى الرغم من ذلك، استطاع ذئب جائع أن يفترس الصغير أمام عيني أمه التي لم تستطع حمايته بسبب القيود حاولت بكل جهد النهوض ولم تستطع، كادت أن تتمزق من

الغبن، وهي ترى الذئب يفترس صغيرها، ماتت الناقة من القهر، لم تستطع أن تتحمل ما جرى.

"لو أنها غير مقيدة لاستطاعت قتل الذئب" هكذا تعالت الاصوات، وجدوها ميتة في صبيحة اليوم التالي، كان هذا المشهد لا يغيب عن ذاكرة "صعب". لازمه طوال هذه السنين، واليوم يسترجعه في ليلة زواجه بكامل تفاصيله. لم يكن إقدام "صعب" على الزواج بالأمر الهيّن، إلا أنه أراد أن يواجه الموت، أن ينتصر عليه بالحب.

وعندما رأى الموت في عيني سعدون همس لزوجته:

- أحتاج لمعجزة لأظل بجوارك.

جلست "ساكبة" بجوار المحفة في الجهة الغربية من قاع بني مرة، نظرت لجثة زوجها بعمق، همست وهي تمسح جبين "صعب" براحة يدها: الموت يا عزيزي، إذا وقع على إنسان كبر فجأة، وقفز خطوات واسعة للنهاية، أعلم أن بقايا روحك لا تزال تجوب في جسدك؛ تسمعني تدركني! ولكن لم يبقَ منك سوى هذا الجسد الذابل.

الشمس الحارقة تجعل دماغها تغلي، تشلها عن التفكير، نظرت للجسد المتورم، سيأتي الليل وتنهشه الذئاب، نهضت مسرعة، وقامت على عجل ونصبت الخباء المصنوع من شعر الماعز، خباء صغير على شكل هرمي يتسع لشخصين على الأكثر، ثبتت الأوتاد جيدا، ربطت الأطناب مددت جثة "صعب" في جانب وجلست هي في الجانب الآخر.

الموت وعاء الحياة يحوي تفاصيل الإنسان منذ صرخته الأولى، ولكن صحبة الأموات مملة، حتى "صعب" وهو ميت صحبته مملة، تخلّت عن فكرة احتفاظها بجسده، ليس لأنها لم تجد طريقا لذلك، ولكن لأنها تكره أن ترى زوجها بهذا الجمود. نظرت من كوة صغيرة في الخباء للشمس الهاربة نحو مخبئها، تسقط خلف أَكَمة كبيرة، عادت بنظرها لصعب، احتضنت جسده، أجهشت في البكاء، ارتجف جسدها النحيل بشدة، الظلام يحل بهيبته، يغطي الصحراء ويتسلل الخوف لقلبها قادما على صوت فحيح أفعى أطلّت برأسها من باب الخباء، فشاهدت على بقايا ضوء الشمس رجلًا فارعَ الطول يخرج من بين الرمال، تسير بجواره أفعى سوداء عملاقة، راقبتهما بوجل حتى اختفيا

في العتمة، جلست على إليتها متسمرة ينتفض جسمها، بينما يرج رأسها بعبارة جاءت من بعيد على طيف من الخيال متلبسة صوت جدتها: "الموتى يغدون كائنات أخرى غير التي نعرف؛ لذا يجب أن نتخلص من أجسادهم!".

انسلت للداخل، لا يفارقها شكل الأفعى، طولها يقارب الأربعة أمتار، لها قرنان صغيران، أما الرجل فارع الطول، يرتدي رداءً أبيضَ، وعمةً سوداءَ، له شارب أسود كثيف، يمسك في يده عصا. زحفت على ركبتيها، أطلت من الكوة، لتجد الظلام يغطي كل شيء، استلقت على ظهرها، وأغمضت عينيها، رأت في نومها أنها حشرة صغيرة جدا تسير في صحراء خالية لا تعرف لأي جنس تنتمي، ولا إلى أين تتجه، ظلت تسير حتى إن هبت ريح عاتية حملتها عاليا لتعلق بين السماء والأرض. يتسلل ضوء النهار من باب الخباء يتمدد على وجهها. استيقظت بتكاسل احتاجت لوقت كبير، حتى استطاعت أن تستجمع كل تفاصيل حياتها السابقة، ولتدرك أنها "ساكبة" وأن "صعب" زوجها مدد بجوارها جثة هامدة، همست لنفسها وهي تمسح دمعةً من حجر عينها، كيف لي أن أفلت من قبضة الزمن! آه لو كنت حشرة!

"لقد ماتت الزغاريد في صدرك يا ساكبة، ماتت فرحتك."، كان صوتًا غريبًا يحمل تلك العبارة، يتجلجل في عقلها صوت يختبئ خلف الوعي، ربما كان ذلك صوت روح شاعر تاهت في الصحراء. قررت التخلص من هذا الصوت بالصراخ عاليا، وقررت أن تتخلص من جسد "صعب" المتورم.

خلف الخباء من الناحية الغربية، قامت بالحفر، وبعد أن انتهت من حفر قبر يتسع لجثة زوجها، راحت تبحث حول المكان لتعود تسحب جذع نخلة كبير، وضعته بجوار القبر بعد أن قطعته جزأين. العصاري تزف الشمس لمخبئها، و"ساكبة" تجر جثة "صعب"، لتضعها في جوف الأرض، تقدمها هدية للصحراء الجائعة، قامت بوضع جذع النخلة على الجثة، وأهالت التراب عليها، توقفت للحظة، عندما رأت ظلها، حدقت مليا فشاهدت رأسًا كبيرًا بقرنين متصلة بجذع ناقة، كادت أن تفقد وعيها وهي تشاهد ظل "صعب" يخرج من بين جذوع النخل ويهرب مسرعا للجبال، لم تعد قادرة على فعل شيء، زحفت نحو خبائها، وهناك ضمت جسدها المرتجف، شعرت

بثقل رأسها، شعرت أن شيئا ما يخترق جسدها، وعندما اعتدلت وجدت كثيرًا من الثقوب في جسدها تدخل فيها أفاعٍ وعناكب سوداء.

لم تستطع التأكد ما إذا كانت تلك الثقوب حقيقة أم وهمًا، فقد غلبها النوم، سبحت في ظلام قاتم دون أن ترى شيئا، لم تستيقظ إلا في اليوم التالي. قبل المغيب بقليل قامت بتكاسل، فتحت باب الخباء، وكادت أن تقع من هول ما رأت، البعير سعدون يقف أمامها تماما، بدا شاحبا، فقد نزف كثيرًا من الدم، تراجعت في هلع، اصطكت أسنانها من الخوف، ولكنها رأت سعدون يتهاوى على الأرض ويقع ميتا.

"سأنحرك أمام عيني ناقتك، وسأوزع لحمك هذا اليوم على سكان القاع."

قامت بنحر البعير سعدون، فصلت رقبته عن جسده، أمسكت رأسه. عيناه ذابلتان ولسانه متدلٍ، توجهت للناقة، حركت الرأس وقالت بصوتها الغليظ: أنا سعدون يا ناقتي، ثم راحت تقهقه، ورمت الرأس أمام الناقة، وعادت تقطع جسد سعدون، بذلت جهدا كبيرًا إلا أنها كانت مستغرقة في متعة لا تعلم مصدرها، غدا البعير سعدون مجرد كوم من اللحم، وزعته على أهالي القاع، أما الجلد، فقد دبغته. قالت

وهي تستعد لوضعه في وعاء به ماء وملح وتمر: هذا سيكون فراشا وثيرا.

لم تتحرك الناقة، ظلت واجمة تنظر لـ"ساكبة" بعينين يخرج منهما الشرر، وهي تشعل النار أمام الخباء، شوت كبد سعدون على جمر. رائحة الشواء تتصاعد و"ساكبة" تنظر للمضارب الممتدة في الأسفل، بدا قاع بني مرة موحشا مع حلول الليل، الريح تصفر بجوار البئر، النجوم بدأت تتزاحم في السماء، تناولت قطعة من كبد سعدون، لم تذق في حياتها ألذ من هذه الكبد، نظرت نحو الناقة وقالت: الآن تساوينا. ثم قامت وفكت عقال الناقة، ضربت بكفها على ظهرها وقالت: اذهبي حيث شئتِ، لم أعد بحاجتك. ثم استلقت على الرمال الباردة بعد أن شاهدت الناقة تركض باتجاه الغرب وتمضي بعيدا. رائحة الحطب المتصاعد من أمام بيوت القاع تملأ المكان. وبعض الهمسات تبدد الصمت، حدقت "ساكبة" في النجوم، تبحث عن الساجور، قالت: سيعود بعد خمسمائة عام. مالت على جنبها، عبثت بالتراب بيدها. واتخذت قرارا بأنها ستهرب من نظرات الناس للأبد.

أعاد "ساكبة الليل" من ذلك الزمن صوت "أم المغيث"، هزت أحد أطناب الخباء وهتفت: يا "ساكبة الليل"، يا عرافة ديار بني مرة! أتسمحين لي بالدخول؟

تحسست "ساكبة الليل" جسدها، اشتمت رائحة الشيح البري، وبصوت ثقيل يشبه فحيح الأفاعي قالت: ضعي عصابة على عينيك، وتقدمي خطوتين واجلسي؛ سترين بشكل أوضح في الظلام. فالبصيرة النقية تمنحك العمق، شاهدي نفسك من الداخل، لتفهمي الحياة على أكمل وجه، جلست "هاجعة" ووضعت المغيث في حجرها، أخذت نفسا عميقا، استنشقت رائحة دخان السمر ممتزجا مع رائحة الشيح البري، شعرت للحظة بأنها فراشة تطير حول زهور الشيح والربل والقيصوم، جلت تلك الرائحة روحها.

ما بكِ يا "أم المغيث"؟ ما حاجتك؟ همست "ساكبة" وهي تحرك النار بمبرد صغير، أطرقت "هاجعة" قليلا، ضمت المغيث إلى صدرها، خرج صوتها مثقلا، مرتجفا انزلق بين شفتيها، خرج يجوب الخباء: سيط الله.. الزعيم.. أمر بقتل المغيث، وكل من هو مشوه، هل يعقل أن المغيث هو سبب الجدب الذي حل بالديار؟!

نظرت "ساكبة الليل" نحو المغيث، تأملت قطعة اللحم الملفوفة بقطعة قماش بيضاء وقالت: لعل ما يظنه سيط الله مشوها هو الكمال بعينه، الاختلاف يا "هاجعة" لا يعني التشوه، بل التطابق هو التشوه بعينه، "المغيث" جاء من ظهر رجل ميت تعلق بالحياة، حاول هزيمة الموت، فجاء ابنه على هيئة جديدة، ليس جسده المختلف، فحسب بل روحه أيضا، تلك الروح التي انقسمت لجزأين أحدهما طغى عليه الظلام والموت، والآخر قفز ليستقر في قطعة اللحم هذه، لا تحزني يا "هاجعة"، إن ظلال الموتى لا تغادر برفقة الشمس، بل تبقى مختبئة خلف تلك التلال، تأتي لتعانقنا عندما ننام أو تغشانا في ساعات الحنين، ولكن الروح المشوهة كتلك التي تستقر في جسد "سيط الله" هي أكثر شؤم من الجسد المشوه.

تناولت "ساكبة الليل" المغيث، ضمته لصدرها، وأضافت وهي تنظر في عينيه الزائغتين: الإنسان يكون قويّا يا "هاجعة"، عندما يستطيع أن يتحرر من تلك الحيثيات التي تحيط به من علاقات وحب وصداقات، عندما يكون كتلة منفصلة عن البشر ومتسامية على الزمن يكون قويا، انظري لتلك. وأشارت بيدها نحو مدخل الخباء حيث

تظهر بعض الأشجار على امتداد السهل، عندما تنمو تلك الأشجار تمتد جذورها في الأرض. أما الإنسان عندما يموت ويوضع في التربة، فإن جذوره تتمدد في الحياة والمكان.

عندما يعود الإنسان لمادته الطبيعية، فإنه قد حاز الكمال وتدثر الراحة، لا تحزني يا "هاجعة"؛ فهذه الليلة سيتحرر "المغيث" من حبسه، وسيحلق فوق قمم الجبال تلك، ستتمدد جذوره في الحياة.

في اللحظة التي تغيب فيها الشمس خلف كثبان الرمال، تهرب الظلال إلى الجبل، تختبئ هناك كي لا تمتزج مع الليل وتفقد ملامحها، "المغيث" سيعرف كيف يتعامل مع الموت، هيا انهضي واذهبي، دعي "المغيث" يتحرر، لا تقيديه بأربطة الحياة.

ما أن خرجت "أم المغيث" حتى تبعتها "ساكبة الليل" تحمل جسدها الضخم المتهدل، سارت على ضوء الشفق ترتدي رداء أزرق اللون مذهبة أكمامه، بدت آثار الزمن بارزة على وجهها المليء بالتجاعيد، حتى القرط المعلق في أنفها بدا باهتا، تلك المفازات من الزمن جعلتها مثل هذه الصحراء. أسرعت الخطى لتمسك بفريستها، فقد شاهدت قبل شروق شمس هذا اليوم أنثى ضب تقف على حجر

بجوار جحرها، قررت أن تصطادها على بقايا ضوء الشمس الغاربة كعادتها دائما، قالت وهي تمد يدها في الجحر: سأمسك بهذا الحيوان عديم الفائدة. ولكن محاولاتها لم تجدِ نفعا، لذلك أشعلت النار في رأس عود سمر طويل، وأدخلته داخل جحر أنثى الضب، مما اضطرها للخروج هربا من الدخان. استطاعت "ساكبة الليل" أن تمسك بها، حملتها بين يديها وأنثى الضب المستثارة تحاول الإفلات بتحريك جسمها بقوة، قالت ساكبه وهي تحكم قبضتها على رقبتها: كفاكِ غباء، سأجعل منك كائن ذا فائدة، عليك الهدوء فقط.

ما أن وصلت خبائها، حتى وضعت على النار الهامدة مزيدا من الحطب فاشتعلت لتنير الخباء، أمسكت بالسكين وقطعت رأس أنثى الضب، شقت بطنها وأخرجت أحشاءها، وعلى الرغم من ذلك، كان هذا الجسد الصغير يتحرك، ينتفض. تعلم "ساكبة الليل" أن الضب يتشبث بالحياة حتى بعد تمزيق جسده. قالت وهي تبحث عن كيس الملح: سأمنحك الخلود أيها الكائن الأحمق. حشت بطن الأنثى بالملح وخاطتها بالصوف. ثم أعادت الرأس لماكنه، وثبتته بخيوط من شعر الماعز قالت: هكذا لن تموتي أبدا، وسيكون لك فائدة بإخافة

الحشرات. حملت أنثى الضب المحنطة، ووضعتها أمام مدخل الخباء مباشرة، شعرت بنشوة وهي تعيد تركيب جسد الضبة، قالت بعد أن أكلت أحشاءها نيئة: ليتني فعلت ذلك بسعدون. فشلت "ساكبة الليل" بالإمساك بالأفعى السوداء ذات القرنين على الرغم من أنها قدمت لـ"ودود" كل المغريات. قالت له: سأحررك من قيود العجز، سأمنحك حكمة تجعلك تعرف متى عليك أن تغادر برفقة الشموس.

_ لا أريد سوى أن أتحرر من كابوس المجهول.

_ سأعطيك ذاك.

_ وكيف لعجوز مثلك أن تفعل؟

_ ألم أخبرك من قبل يا "ودود" عن موعد موت زوجتك؟ ألم يحدث؟

_ بلى، ولكن كيف؟

قالت وهي تسرح بصرها بعيدا:

- الأحلام يا "ودود". إن الروح تفارق الجسد عند ما ننام، وتذهب لتلتقي بأرواح الآخرين، تذهب لعالم مكشوف به كل شيء، وتأتي من هناك بأخبار عن المستقبل، ما يجب أن تتعلمه هو الطريقة

التي يجب عليك إرسال روحك بها إلى هناك، أنا من سيمنحك تلك الطريق، ولكن عليك إحضار الأفعى السوداء من خلف تلك الجبال، اليوم ماتت الشمس، ستنسل خفية وتتسلق الجبل. ستجد عباد الشمس منشغلين عنها بالاستعداد للهجوم على المضارب؛ وتلك فرصتك.

لم يتوانَ "ودود" في الذهاب. كان شاب جسورا لا يخشى شيئا. رأى تجمهر الناس فوق التبة، ورأى أخيلة عباد الشمس. انسل من أسفل الوادي، وتسلق الجبل برشاقة، نزل للجهة الأخرى، دهش مما رأى الأرض سوداء، الأشجار تتمدد على الأرض، جماجم كثيرة، رصت فوق بعضها بعضًا، سار بحذر شديد، قلبه ينبض بقوة، الأرض السوداء مخيفة، وبناء المنازل من بقايا العظام البشرية أمر بشع، وجد الأفعى تتمدد بقرب إحدى البيوت، لم يتصور أنها بهذه البشاعة؛ طولها أربعة أمتار، عيناها الواسعتان يظهر منهما شرر، لها رائحة نتنة جدا، اقترب منها، لم تبدِ أي رد فعل. لمس رأسها، تحسس جسدها، استطاع أن يصعد فوقها بعد عدة محاولات، وما أن ضربها بكعب رجله، حتى انطلقت كالريح، قادها باتجاه الجبل، تجاوز الجماجم وما أن

قارب الوصول لسفح الجبل حتى سمع أصواتًا تتعالى خلفه ورماح تمر بجواره تريد اختراق جسده، توقفت الأفعى بعد أن أمسك عباد الشمس بذيلها. التفوا حول "ودود"، رأى كتلًا سوداء تتحرك بسرعة شديدة، تقدم أحدهم وقال: أنت هدية الشمس.

كان ودود يتصبب عرقا، قارب على فقد الوعي لولا أنه سمع صوت جهوريا يعرفه جيدا: دعوا "ودود"، إنه لي أنا.

كان القادم "ثاقب"، فرت الكتل السوداء ما أن رأته، حمله بين يديه. وجهه الشاحب وحركته الثقيلة يجعلاه يبدو كأنه ميت، وضع "ودود" على قمة الجبل وقال له: عد للمضار أيها الشاب الصغير ولا تأتِ هنا مجددًا.

5

الشمس تدحرج بقايا النهار، الضوء الأصفر المائل للحمرة يلون سماء قاع بني مرة، تسير "هاجعة" في موكب كبير باتجاه التبة الغربية، تحمل بين يديها "المغيث"، يتبعنها أمهات المشوهين. كل منهن تحمل ابنها بين يديها، يسرن على كثبان مائلة للحمرة، تظهر في الأفق الجبال الشهباء وكأنها تقف حارسة على القاع، وفي أسفلها تمتد هضاب على طول القاع، فوق التبة تحلق الأهالي حول القبور.

ما إن انتهى "مهلاليل" من حفر القبور بمعاونة رجال القبيلة، حتى أشار "لسعد الأفعى" أن ينحر الناقة السوداء التي أحضرها الزعيم ليلة البارحة، ونام الحكيم بجوارها بعد أن ظل يقرأ تعاويذه عليها حتى غلبه النعاس، أحكم "سعد الأفعى" ربط عمامته على رأسه، مسح شاربه الكثيف بإبهامه، واستل خنجره المعلق في حزام حول خصره، نحر الناقة، تناثرت دماؤها على القبور، وبدد ثغاؤها الصمت. تقدم الزعيم "سيط الله" وبعد أن لطخ وجهه بالدماء

الناقعة على الأرض، التفت ناحية أمهات المشوهين، وقال بصوت دافئ: لقد اختار الله أبناءكم كي يكونوا السبيل لنجاة القبيلة، على الإنسان العاقل أن يسير وفق مجرى حياته. فهو لا يستطيع تغييره أبدا، سكت للحظة ثم أضاف وهو ينظر لـ"مهلاليل": هيا ليس لدينا وقت؛ عليك إنجاز المهمة قبل غروب الشمس.

وقف "مهلاليل" أمام القبر الأول، يحمل بين يديه شاهد قبر حجريٍّ نقش عليه اسم من سيدفن حالا. ونادى بصوته الأجش: "الأحدب ابن نائلة".

تقدم فتى نحيل بنصف جسد سار على يديه، سحب جسده وانزلق داخل القبر، وقبل أن توضع فوقه جذوع النخيل ويهال عليه التراب، أطل برأسه من القبر، نظر في الوجوه المحدقة به، تمعن القاع، أمعن النظر في الشمس التي تستعد للمغيب، شاهد والدته جاثية على ركبتيها مطرقة وجهها للأرض. شعر بالريح تداعب جسده، ثم غاب تحت الأرض.

بعد أن تم دفن المشوه الأول ورش الماء على قبرة، وضع "مهلاليل" لوحا حجريا بجوار القبر الثاني وقال بصوت حاد:

- "عابر ابن أسفر".

قال ذلك وتوجه نحو أمه وانتزعه من بين يديها: أعطيني هذا الثعبان الصغير الذي منع عنا المطر طيلة تلك السنوات. جسم "عابر" الطويل يشبه ثعبانًا صغيرًا بقوائم، له عينان دائريتان وأنف مدبب. أسرع "مهلاليل" وقذف به في القبر. لم يستطع تحمل لزوجه جسمه، لم يعرف من أين تخرج السوائل العفنة التي تغطي جسده، دُفن بسرعة فائقة لم يستطع حتى النظر لوالدته.

أكبر المشوهين يبلغ من العمر عشرة أعوام وهو "ساهم ابن عارية"، وقفت أمه بين القبور وحملته عاليا: هذا ابني أقدمه اليوم عربونا كي يرزقنا الله المطر. قال الزعيم "سيط الله" عندما تناوله منها: باركك الرب. إن هؤلاء الأطفال سخرهم الله لنا كي يكونوا سبيل نجاتنا، ثم تفحص جسد "ساهم"، ورأى صدفة تشبه درقة السلحفاة قال: ربما كانت هذه الصدفة التي على ظهر ابنك هي من منعت عنا ماء السماء. وأضاف بصوت جهوري وهو ينظر للوجوه الحائرة: علينا نصب تماثيل لهؤلاء الأطفال الأنقياء، وعلينا أن لا نطلق

عليهم وصف مشوهين بعد اليوم. فليعرفوا بجلاب المطر! تقدمت "أم ساهم" وقبلت يد الزعيم وترجته أن تدفن ابنها بيديها.

جاء صوت "مهلاليل" متعبا: "

- أحمز ابن دادا".

لم يكن "احمز ابن دادا" سوى يد كبيرة تنتهي بقطعة لحم، كان والده "دادا" يعتبر ما يجري مهزلة وعبثًا في مصائر الناس، حاول الرفض، ولكنه هدد بالطرد من القبيلة، لم يحضر مراسم الدفن، أما أمه "دايعون"، فإنها ارتبكت عندما سمعت صوت "مهلاليل" يحمل اسم ابنها. ضمته لصدرها واستدارت قالت وهي تنظر للأفق:

- لن أترك ولدي تحت الثرى، مهما حصل. أمسكت إحدى العجائز بمعصمها وقالت: يا "أم اليد"! هل يرضيك أن تفنى القبيلة عن بكرة أبيها، ونظرت في عيني "دايعون" بنظرات حانية وأضافت:

- ابنك خلق بشكل مختلف لا يدرك شيئا في هذه الحياة، لا يستطيع أن يفعل أبسط الأشياء، إنه قطعة من اللحم تتنفس.

جاء صوت "دايعون" مخنوقا:

- ولكنني أحبه.

أجابتها العجوز:

- الحب لا يكفي لتستمر الحياة، لابد من العقل أيضا، ثم إنك تفهمين الحب بشكل خاطئ، إن ما تسميه حبا إنما هو أنانية. الحب يا "أم اليد" أن تجعلي ابنك يرتاح، أن تدعيه يعود لأصله الساكن ويمنح الناس الخير.

ثم فردت ذراعيها طالبة الطفل المشوه. ناولته أمه لها وسارت به نحو الزعيم الذي تلقاها بابتسامة واسعة تخرج من خلفها كلمات الرضى:

- هكذا يجب أن تكون النساء مضحيات لمصلحة القبيلة.

أودع الزعيم "أحمز ابن دادا" القبر وأهال عليه التراب بنفسه، ثم وضع اللوح الحجري الذي يحمل اسم صاحب القبر على ناصية القبر، وراح يفرك يديه بالتراب.

آخر المشوهين كان "المغيث"، حمله الزعيم بين يديه، سار به بين الجموع المترقبة، رفعه عاليا بيد واحدة ونظر للسماء، همس بصوت خاشع تسلل للمسامع:

– هذا آخر ما نملك نقدمه لأجل المطر، يا بنات نعش، نقدم لكُنَّ هذه الأرواح الطاهرة كي تؤنس عزلتكن وتخفف مصابكن، ولا نريد غير المطر، فالقحط قضى على كل شيء؛ ذبلت الأعشاب وماتت الدواب وجفت البئر، بات القاع عبارة عن أرض للموت يصطاد بها الأرواح.

وبعد أن انتهى من مناجاته تلك، سار نحو القبور ووضع قطعة اللحم أسفل القبر، مدد ساقيه الرخوتين، كانت نظرات عيني "المغيث" الواسعتين كالسهام تخترق جسد الزعيم الذي لم يحتمل تلك النظرات، شعر أن روح المغيث تخترق جسده، تجوب بداخله. أسرع بالوقوف وتراجع للخلف كي يفلت من تلك النظرات، وقال بصوت مرتجف: أهل عليه التراب يا "مهلاليل". وبعد أن انتهى الحكيم من مهمته، مسح جبهته بساعده، وأنزل القلنسوة الصفراء من على رأسه، وقف ينظر لبقايا ضوء الشمس الغاربة. وقف بجوار الزعيم "سيط الله" وربت على كتفه:

– كل شيء سار على ما يرام.

نظر الزعيم "سيط الله" للجموع وقال بصوت عالٍ وهو يمسح لحيته على أمهات المشوهين أن يخضبن جباههن بدم الناقة كي تحل عليهن البركة.

تسابقت النساء على دم الناقة الناقع على الأرض. مسحن جباههن وذقونهن بالدم المتخثر، تعالت أصواتهن بالتهاليل. أشعل "سعد الأفعى" النار ووضع فوقها أعواد الصندل، والحلتيت، تصاعد دخان كثيف لتمتزج رائحة البخور بأصوات النساء ويموت نهار آخر في مقبرة الزمن!

غابت الشمس خلف الجبال البعيدة، وحل الظلام على قاع بني مرة، تصفر الريح بشكل جنوني تحرك أروقة بيوت الشعر الخالية، تنثر الرمال في السماء، تمر بين جموع الناس العائدين لبيوتهم تطوف حولهم.

صوت منهك يخرج من إحدى الحناجر متسائلًا: كيف تخلت الأمهات عن أبنائهن بهذه السهولة؟

وقبل أن يغيب هذا الصوت في صمت الصحراء، لحق به صوت آخر مرتجف خرج من حنجرة فتاة صغيرة: لن تمطر السماء قطرة ماء واحدة، الموت لا يلد الحياة.

جاء صوت الحكيم غاضبا:

- لقد حررنا المشوهين من قيود الوقت البالية، أهكذا يكافأ الزعيم الباحث عن مصلحة القبيلة! فلينصرف كل منكم إلى شأنه.

قالت "أم المغيث "بصوت عالٍ طوق الناس من كل ناحية:

- أليس غريبا أن يكون كل المشوهين ذكورا!

وتلى ذلك صمت تخلله صوت "أم اليد":

- بالفعل.. لم أنتبه لذلك الأمر، هل من تفسير لذلك، يبدو الأمر غريبا!

لم يطق الزعيم تلك الأسئلة التي يرى أنها لن تؤدي إلا لمزيد من الجلبة! انتبه "مهلاليل" لذلك، فتقدم الجمع بخطوات واسعة، ووقف أمامهم فاردا ذراعيه، وبعد أن توقف الناس قال: يا أهل القاع، دعوا عنكم هذه الترَّهات وادعوا الرب أن يرزقنا المطر، ثم اعلموا أن النساء لا يخلقن مشوهات في قبيلتنا، ربما أن ذلك يعود للأصول الأولى؛ فالمرأة خلقت من ضلع أعوج، وهذا يجعل أصلها أعوجًا؛ لذا فإن مسألة كمال النقص تكون بأن تمنح جسدا شهيا. وضع قلنسوته على رأسه ليخفي شعر رأسه الأبيض. وأشعل غليونه، وبعد أن نفث

الدخان أكمل: عليكم الآن الدعاء فقط، لا شيء غير الدعاء، هيا فليذهب كل منكم إلى بيته. وبقي هو والزعيم أسفل التبة، جلسا متجاورين، أسهد الزعيم ذقنه على ركبتيه، وأطرق كثيرًا ثم قال بصوت خائر: هل سننجح؟

بالطبع سننجح، انظر! وأشار "مهلاليل" للسماء: ألا ترى تألق النجوم في العتمة.

قاع بني مرة الواسع ضاق بساكنيه هذا اليوم، بيوت الشعر المنصوبة على امتداد القاع ازدادت سوادا.

لم يحضر "أنف الكلب" مراسم الدفن، فقد تسلق شجرة السمر العملاقة واكتفى بمشاهدة الأحداث من بعيد، وعندما عاد الناس أسرع بالنزول. قفز من جذع السمرة، وبخطوات سريعة سار نحو المضارب، وقبل أن يبتعد كثيرا سمع الصوت نفسه الذي أسره من قبل: "يا أنف، لا تعتقد أن الأماكن والأشياء لا تحس ولا تشعر، بل على العكس تماما؛ هي تعرف ملامح البشر، تشتاق لهم، ولكنها تنظر لكل الأجيال كحلقات متعاقبة بطريقة يصعب عليك إدراكها، ولكن

هل لي أن أسألك لماذا لم تذهب وتحتفل بدفن المشوهين إلا أنك تخشى أن تحل عليك اللعنة؟

وقف "أنف الكلب" متسمرا مكانه يتردد في أذنيه صدى الصوت، شعر على غير العادة بالاختناق، دار حول نفسه دورة كاملة، ثم جلس دون أن ينطق بكلمة واحدة، الظلام الكثيف يكاد يجعله يفقد الشعور بذاته، يجاهد كي لا يذوب شعوره بالحياة، يخشى أن يخترق الظلام جسده ويمزقه، يمسك بقبضة يده الرمال الباردة ويسكبها على جسده. يتغلغل صوت داخله:

- "جملة الإنسان يا أنف في ترتيب أعضائه أليس كذلك؟ لكن نحن معشر الأشجار تجاوزنا معضلة الأعضاء، تجاوزنا التفاصيل لنصل للكل، لا يعنينا شكل جذوعنا طالما هي تسير للأعلى، أما أنتم معشر البشر، فنصف جسدكم خصص للحركة، لذا فأنت لا تستطيع إدراك الزمن بشكل مباشر، وتلك هي معضلتك كما هي معضلة كل بني جنسك".

شعر أنف ببرودة تسري في جسده، أغمض عينيه ودون أن يقاوم، غاب في الظلام يتردد في أذنيه صوت غريب:

- "الأطفال الذين غادروا أجسادهم ليسوا آسفين على عالم بائس رضعوا فيه القسوة من ثدي الأيام، إنما من وجب عليه الأسف هم الذين مازالوا على قيد الحياة، يصارعون مخاوفهم كل يوم كي يتأكدوا من وجودهم"، هذا العالم البائس لا يستحق أن تتشبث به.

*****

مع بزوغ الفجر، تغلغل صوت "أنف الكلب" في الرمال ليعود مجددا ويرتفع للسماء كي ينزل كصاعقة تقصف بالمسامع: الريح.. الريح.

هبوا جميعًا يركضون باتجاه الصوت. وصل أولا "سعد الأفعى"، تيبس مكانه بعد أن نظر للاتجاه الذي أشار إليه "أنف الكلب"، لحقوا به جميعًا ووقفوا في صمت وكأنهم تحولوا لصخور نحتتها الريح على شكل بشر!

خرج صوت "أم المغيث" مرتجفا: لا يعقل! هذا جنون الريح، تنبش القبور فوق التبة! جثت على ركبتيها ورفعت كفيها إلى السماء تلهث بالدعاء: رحماك يا رب.

الريح تثير دوامات كثيفة من الغبار فوق التبة الغربية، دوّامات سوداء تصعد للسماء كأنها طريق مفتوحة تصل السماء بالأرض، تكاد تبتلع الشمس الشاحبة، يظهر من بين الدوّامات خيال امرأة تنتقل بسرعة بين القبور.

قدم "سيط الله" يتبعه "مهلاليل"، وقفا ينظران بتمعن للمشهد، وما لبث أن صاح الزعيم في الجمع: يا لعقولكم البلهاء، تقفون في الشمس تتفرجون على فساء الشيطان، وتتركون أغنامكم وإبلكم عرضة للخطر، هيا فلتنصرفوا لأعمالكم.

أشعل "مهلاليل" غليونه ونفث دخان من فمه الشاحب، تقدم نحوه "أنف الكلب" بخطى ثابتة تتبعه "أم المغيث"، وقف مواجها للزعيم يراه قزما أمام تلك الدوامات، رآه كحشرة صغيرة لأول مرة، ينظر للزعيم بأنه تافه، ربما هي قوة الطبيعة، أو ربما هي قوة داخلية تحركت هذا اليوم، تحدث بصوت جهوري كسيد يتحدث لخادمه: يبدو أنك لم تعد تشاهد جيدا، تصف الأعاصير بفساء الشيطان، إذن بربك من جلب هذا الفساء علينا، بل ربما تكون أنت في الأصل مجرد فساء خرج من مؤخرة عجوز، وأخذ هيئة إنسان!

الشبح قادم! هكذا صاحت "أم المغيث" وهي تتراجع للخلف. نظر الزعيم من خلف كتفه فشاهد خيال امرأة ينزل من التبة ويتجه نحوهم.

قالت "زهد":

- الشيطان قادم. وهي تطوق جذع والدتها بكلتا يديها، سرت رجفة في المكان. الشبح ينسل بسرعة قادما من جوف الريح. الحكيم "مهلاليل" يطوف حول الجمع ويرفع عقيرته بتعاويذ وأذكار. اقترب الشبح كثيرًا حتى صاح سعد الأفعى: عطية.. إنه عطية.

ذهب "عطية" للتبة بعد أن انصرف الناس من مراسم الدفن، قرر أن يحفر له قبرًا يودع فيه جسده، قال وهو ينظر لنهديه: جسدي مشوه، بل إنه أشد تشوها من أجساد أصحاب هذه القبور، ولكنه غير ظاهر للعيان، ربما إن أجسادهم جاءت ناقصة أو زائدة، أما أنا، فجسدي يحمل صفات كائنين مختلفين، رجل وامرأة لذا فأن وجودي يعد خطيئة بعكس وجود من نقصت أو زادت أعضاؤهم. كيف لروحي أن تستقر في جسد جمع الضدان!

تمدد في الحفرة التي حفرها بين قبور الأطفال المشوهين: هنا سأجد الراحة الأبدية؛ لن اضطر لإخفاء نهدي بعد اليوم، لن انتظر المطر، لن يؤرقني الجدب، ستبتلعني الأرض وتخفيني عن الوجود.

أهال التراب على جسده بيديه وعندما قارب على الانتهاء، هبت الريح وأزاحت الدوامات التراب الذي وضعه على جسده، انقلب على جانبه الأيمن ينتظر انتهاء العاصفة، ولكن دون جدوى، وكأنها جاءت خصيصا لتنتزعه من حضن الأرض. وبعد أن يأس، خرج من قبره يركض فوق التبة، يصرخ: تبا للريح. تبا للريح. وعندما رأى الأهالي ينظرون إليه قرر النزول بعد أن حاول جاهدا إخفاء القبر.

ماذا تفعل هناك! وجه "سيط الله" سؤاله الغاضب لـ"عطية"؟!

- لا شيء.. أودع الموتى

-مجنون آخر! يبدو أنه لم يعد في القبيلة عاقل.

لاحظوا جميعًا أن الريح هدأت ما أن وصل "عطية"، أشار "مهلاليل" أن يذهبوا لتفقد القبور، قال: لنلقي نظرة على القبور ربما نبشت الريح أحدها.

توجهوا جميعًا للتبة، كثيرٌ من قطعان الماعز ترعى العشب اليابس أسفلها، يمتد السهل حتى ينتهى بجبال السراة ذات اللون البنفسجي، وقفوا جميعًا يتفقدون القبور، أشار "مهلاليل" لحفرة لم تكتمل وبجوارها نقش على الرمل يحمل صورة "سيط الله" داخل دائرة، وبالجوار منه نقش آخر لنهد امرأة، وقضيب رجل. أشار "مهلاليل" بعدم الاقتراب. تفقد "سيط الله" الرسوم، ذهل من تطابق ملامحه مع النقش، إلا أن أنفه كان واسعًا قليلا، ولكن باقي التفاصيل كانت مطابقة تماما، حتى طريقة لبسه للعقال، نظر جيدا عله يجد آثار أقدام من رسم هذه النقوش، إلا أن الريح لم تبقِ على أثر. ولكن أليس غريبًا أن تمسح الريح كل الآثار ولا تبقي سوى على هاتين الرسمتين؟ هل تكون الريح هي من رسم هذه الرموز! ولكن مجرد التفكير في هذا الأمر يعد جنونا!

وأليس جنونا أن تدفن الأطفال بتهمة التشوه؟

لقد حفظت الريح تفاصيل ملامحك، رسمتها بحرفية عالية على الرمال، لوكان لديها متسع من الوقت، لربما نحتت صخرة بملامحك.

تتصارع الأسئلة بداخله، ويموت الجواب مختنقا.

القبور كما هي لم تغيرها الريح إلا أنها جعلت الشواهد والصخور أكثر بروزا وهيبة، الأجساد المشوهة ترقد تحت التراب بهدوء منذ الأمس. يا ترى أين ذهبت أرواحها؟ هل مازالت تقف فوق القبور أم أنها غادرت بعيدا. ركل "سيط الله" الرمل بقدمه، وأخذ يمسح صورته وأخذ يزعق: تبا للريح تبا لكم! شعر بنظرات عيني "المغيث" الواسعتين تخترق جسده، شعر بروحه تتجول في جسده، نظر حوله، شاهد جثث المشوهين تخرج من القبور، وقد بدت ضخمة، حاصرته من كل الجهات، تقدمت نحوه جثة "المغيث"، قطعة عملاقة من اللحم تتوسطها عينين واسعتين زائغتين. دب الرعب في قلب "سيط الله" يد ابن داد تمتد باحثة عن عنق الزعيم، تراجع للخلف وفر هاربا نحو المضارب. جسمه يرتجف تصبب منه كثيرٌ من العرق، توقف للحظة، استجمع أنفاسه المتسارعة وحنى ظهره مسندا كفيه على ركبتيه، قال وهو يستعد لمواصلة السير: لم يتبقَّ سوى أن أموت على يد جثث أطفال مشوهة.

مضى يسير بخطوات متسارعة، شعر بالجثث تسير خلفه تلاحقه، سمع أصواتها: سنقتلك، سندفنك حيا! سرت قشعريرة في ظهره،

تسلق الجبل الرملي المؤدي لخباء "ساكبة الليل"، بصعوبة يكاد ينصهر رأسه من حرارة الشمس، وقف أمام الخباء بعد أن جثى على ركبتيه، وقال بصوت خائر خرج ملتصقا بأنفاس ساخنة: يا "ساكبة الليل"، أيتها العجوز العارفة. الجثث المشوهة تطاردني، تريد قتلي، خرجت من قبورها، هربت منها بأعجوبة، ولكنها تتبعني، ربما هي أسفل الجبل الرملي الآن، أدركيني يا "ساكبة"!

جائه صوتها بعد نحنة طويلة: ماذا تريد أيها الميت الهارب، لقد جلبت علينا الويلات! عد حيث قبرك.

لم يتمالك الزعيم نفسه وفتح باب الخباء ليتفاجأ بكائن نصف امرأة ونصف ناقة، صعق مما رأى، ولكنه تمالك نفسه وأشاح بنظره عنها: الأموات يسكنون جسدي يا "ساكبة الليل"، كيف أتخلص منهم؟

أغمض عينيك يا "سيط الله" وامسح ذاكرتك بحجر، أنت ذبابة أتت تؤدي مهمة وتنصرف، دع جسدك للموتى فلم تعد بحاجته.

يبدو أنك أنت الشر الذي حل علينا. قال ذلك وهو يفتح باب الخباء بكامله ليدخل ضوء الشمس.

أربعين سنة لم أرَ النور، أغلق الباب.

رأى "سيط الله" الرعب في عينيها، قال لن أدعه إلا إذا فسرتِ لي معنى النقش (القضيب والنهد)

ترددت "ساكبة الليل" كثيرا وتحت تهديد الزعيم نطقت: الريح لن تدعك. اذهب وابحث عن النقش في أعلى جبل أبو مخروق، ستجد هناك صندوق الوصايا، ستجد بقايا الكرسي. اقتربت الجثث العملاقة كثيرا، فتح الزعيم باب الخباء بكامله وهبت الريح.

6

استغربوا جميعًا تصرف الزعيم، حاول "سعد الأفعى" اللحاق به، ولكن مهلاليل أمسك بمعصمه: دعه، فهو غاضب قليلا، توقع أن يأتيني المطر فلم يحدث، دعه يدفن خيباته بين الرمال.

نظر "سعد الأفعى" في وجه "مهلاليل"، تأمل التجاعيد النابتة على وجهه الأسمر، وعينيه الغائرتين. راح ينظر بعد ذلك للنقش: وماذا عن هذا النقش؟ أهو أحجية وضعت بقصد أم هي مجرد مصادفة؟

جلس "مهلاليل"، تفحص النقش جيدا، بدت على ملامحه علامات التوتر. أخرج من خرج مصنوع من جلد الماعز، علقه على كتفه، حجر لامع أخضر اللون، نظر "سعد الأفعى" بدهشة للحكيم، بينما وضع الحجر بين القضيب الذكري والنهد، دهش الناس عندما شعّ الحجر نورًا خرج معه صوت هدير من تحت الأرض، ابتعد "مهلاليل" عن مكان الحجر، لم يعد قادرا على الرؤية، وضع ساعده

أمام عينيه ليحجب الضوء، جلس بجواره "سعد الأفعى"، تظهر على محياه علامات الفزع، كان يتصبب عرقا: همس ماذا يحدث؟

لم يأته جواب، ولكن صوت "أم المغيث" حام فوقهم جميع واقتحم مسامع "مهلاليل": يا ويلاه، أفاعٍ كثيرة وعناكب! ليغيب بعد ذلك صوتها الخائف خلف الجبال بالقرب من رفات زوجها.

لم يكن "مهلاليل" ولا "سعد الأفعى" يدركان أن هناك نفق فتح في الأرض بين القضيب الذكري والنهد عندما وضع الحجر بينهما، خرج من النفق أفاعٍ لا يحصى عددها، بأشكال وأحجام متعددة، ومثلها عناكب سوداء كانت مستعدة للهجوم، تدور حول ذاتها تصطدم ببعضها بعضًا، تنتشر في المكان، عندما انطفأ الضوء المشع من الحجر وقف "مهلاليل" ينظر لهذه الكائنات التي حاصرت الناس من كل اتجاه، وملأت الأرض بينما الذهول والخوف يلفان أهل القبيلة.

هذا الحجر سقط من كوكب الزهرة قبل ملايين السنين، احتفظت به طيلة سني عمري معتقدا أنه مفتاح الخلاص. هكذا قال الحكيم وهو يمسك الحجر وينظر إليه بدهشة.

أحد الثعابين استطاع أن يغرس أنيابه في عنق "أم المغيث"، ارتمت على الأرض، تلوت من الألم، فتك السم بجسدها، ابيضت عيناها، كادت أن تموت، ولكن لحسن الحظ لحق بها "سعد الأفعى"، وضع فمه في مكان لدغه الثعبان ومص السم وبصقه على الأرض، كرر العملية عدة مرات، ومن ثم بال في إناء وصب بوله على رأسها، وما أن فرغ من ذلك حتى قامت متماثلة للشفاء وكأنه لم يصبْها شيء.

منذ أن فقد "سعد الأفعى" أفعاه السوداء ذات القرنين الصغيرين، لم يقم بمداواة أحد من لدغات الأفاعي، كان يرفض بشدة لحزنه الشديد على فراقها، فتلك الأفعى رافقته منذ الصغر، منذ أن قامت أم سعد بإحراق أفعى ضخمة ووضعت رمادها على حلمت ثديها، والقمته سعد، كان ذاك أول ما دخل جوفه، لذا اكتسب مناعة ضد سموم الأفاعي، بل أصبحت لديه القدرة على إبطال مفعول السم، كان يميل لمرافقة الأفاعي، يشتم رائحتها، يسمع فحيحها فيدرك حاجتها، ولكنه بعد أن فقد أفعاه السوداء ذات القرون الصغيرة اجتاحته حالة من الحزن الشديد، فترك كل ما يذكره بها، أما اليوم

فكان مضطرا لأن يتدخل، عادت له روحه القديمة، شعر بنشوة، شعر بطعم رماد الأفعى على طرف لسانه.

وقفت "أم المغيث" خلف "سعد الأفعى"، وضع يدها على كتفه قالت: لن أنسى معروفك هذا ما حييت.

قال دون أن يلتفت ناحيتها: هذا واجب علي، ولكن الأهم من ذلك أن الأفاعي والعناكب مازالت تحيطنا من كل جانب، لذا علينا التحرك فورا.

ثم حدق مع بقية الناس ناحية الشرق، تسمر مكانه، قال بحذر عندما شاهد طيفًا قادمًا يظهر في الأفق القريب، تتبعه كتل سوداء: انظر أيها الحكيم، انظر هناك ما يكون ذاك؟!

كان القادم "عطية"، جاء يركض بسرعة، تسارعت أنفاسه، قفز النباتات الصغيرة، تتبعه الظلال السوداء، تريد الانقضاض عليه. صرخ بصوت مرتجف: أنقذوني من أبناء الشمس، يريدون الاختباء في جسدي، يريدون التهامي، لا أريد أن أتحول لظلام.

وصل للتبة منهكا، كان عاريا تماما، نهداه المستديران بارزان، وبطنه ممسوحة وذراعاه نحيلان، ينسدل على كتفيه شعر أسود فاحم،

وقضيبه الصغير بدا كثعبان مات للتو، وساقاه المقوستان فكانتا مليئتين بالشعر، وقدماه مشققتان.

تجاوز "مهلاليل" بسرعة فائقة، ودون أن يعي وثب ليسقط بين الأفاعي والعناكب التي لم تتوانَ للحظة في الهجوم عليه، مزقت جسده، غطته بالكامل، حاول الناس إنقاذه دون جدوى، صيحات "عطية" وتوسلاته توارت، انسحبت من حنجرته لتضيع في الصحراء الشاسعة، عادت الأفاعي والعناكب للنفق المظلم بعد أن خلفت "عطية" جثة منهوشة تظهر عظام قفصه الصدري، وشيء من جمجمته، نزفت كثيرًا من الدماء، إلا أن روحه مازالت باقية. ركض نحوه "مهلاليل"، انحنى عليه، سمعه يقول بصوت متقطع: أبناء الشمس قادمون.. إنهم خلف التلال.

ثم أغمض عينيه للأبد، مسح الحكيم على رأسه ووضع فوق جثته جبة سوداء.

للموت هيبة، سطت على جميع القبيلة، جلبت معها الصمت والذهول، ولكن ماذا صنع "عطية" في دنيته ليموت ميتة كهذه الميتة البشعة، الأفكار تطرق الرءوس، تروح وتغدوا. بدد تلك الحالة

صوت "سعد الأفعى": لابد أن نبحث عن الزعيم. قال ذلك وهو يمد يده "لمهلاليل" ليساعده على النهوض.

أعاد "مهلاليل" الحجر إلى خرجه وانطلق في أثر الزعيم يتبعه الناس. شمس العصاري تنسج ظلالًا طويلة، لكل شيء، وريح تثير الغبار فوق جبل رملي صغير، وأقواس الكثبان الرملية تنتظر الشفق كي يكحلها، طيور الحجل تسرع في الاختباء بين شجيرات الرمث.

عطية الباحث عن الموت بدى خائفا منه؟ لقد شاهدت الفزع في عينيه!

كيف لروحه أن تسكن في جسدين، جسد علوي مثمر كواحة غناء، وآخر سفلي كصحراء جرداء، هل لفظه الزمن ليستبدل روحه روحًا جديدة.

لم يجب "مهلاليل" على تساؤلات "سعد الأفعى". ظل صامتا يفكر فيما جرى للقبيلة، كيف حصل ذلك في لحظات قليلة، كان مطرقا يسير ورأسه منحنٍ للأرض، تجاوزه سعد الأفعى ووقف أمامه فاردا ذراعيه وقال بغضب: أيها الحكيم، عليك إفهامنا ماذا يجري في القبيلة؟

خرجت أصوات كثيرة من حناجر الناس تؤيد كلام "سعد الأفعى"، غلب عليها صوت "أم المغيث" جاء محموما: كيف ألقيت بابني بين كل تلك الأهوال؟ أين هو؟ ماذا جرى له أخبروني!

أمسكت بها عجوز لتثنيها عن إهالة التراب على رأسها، تحلق الناس حول "مهلاليل" تقدم "سعد الأفعى" نحوه ونظر في عينيه: خلال الست سنوات الماضية، لم تلد النساء سوى أطفال مشوهين! نزع الخرج من كتف "مهلاليل". أمسك به وأخرج منه الحجر الأخضر، حمله بيد واحدة ورفعه عاليا وأضاف: هل لهذا الحجر الملعون علاقة بالأمر! لابد أنك تعرف كثيرًا وعليك إخبارنا.

جلس "مهلاليل" على الأرض، وأخذ يسترجع تفاصيل تلك الليلة التي ماتت فيها الشمس، قال جملة مربكة جعلت "أم المغيث" أشبه ما تكون جثة ميتة: لم تكن تلك الأفاعي المتساقطة من السماء وهما يا "أم المغيث" كانت حقيقة لم يدركها سواكِ، في تلك الليلة، اجتمع الناس حول خيمة الزعيم.

أزاح نظره عن وجه "أم المغيث" المكتسي بالدهشة وواصل حديثه: هي قرابين قدمها الزعيم للموت، قبل انصراف الناس. انسل في ظلام الليل، وصعد المنحدر الرملي، ليقف أمام "ساكبة الليل"، طلب منها أن تمنحه عمر الصحراء وهيبة الجبال، قال: أريد الحياة المديدة. ابتسمت "ساكبة الليل" لذلك وأمسكت بنسمة عابرة نسجتها بين يديها، مددتها لتغدو ريحا، وعقدتها عشر عُقَد، ثم طوحت بها في السماء، قذفت بها بين النجوم اللامعة، هكذا أتممت التعويذة، عاد سيط الله للخيمة، بعد أن تفرق الناس كان سعيدا وكأنه فارس يطوح سيفه في الهواء احتفاءً بالنصر المظفر، وعلى الرغم من ذلك، رأيت الحذر في عينيه، اقترب مني وهمس في أذني: تلك العجوز شيطانة. لقد حدثني عن الموت كثيرا. قال: أخشى وحشة الموت، أخشى أن أعلق بينما يمضي العالم بدوني، كيف ينتهي بي المطاف معلقا في ثقوب الظلام، هذا موجع كان واجبا على أن أضحي بكل شيء لأهرب من هذا الشبح.

ثم تحدث عن أمورٍ عجيبة، كذلك السؤال الذي باغتني به: أنحن فعلا نسير مع الزمن؟ أم أن الزمن هو حالة وعينا بالكون، وعندما ندركه تماما نفقد وجودنا وكياننا. سأتشبث بالزمن بكلتا يدي.

قال: إن الليل ظل الموتى، قال أيضا: موجع أن تفقد الشعور بالذات، أن تغدوا كريح عابرة. قال بنبرة مؤلمة. مازال صداها يتردد في أذني: دائما ما يراودني هاجس في ماذا سأفكر عندما يهجم عليّ الموت؟ ربما ستخطر على بالي أشياء تافهة، ربما أفكر في ناقتي الجرباء ساعتها. وراح يقهقه.

تمدد على الرمال واضعا يده خلف رأسه وحدق في السماء المحاطة بحمرة الشفق وقال: العجوز الشمطاء شيطانة، لقد لفت الريح على بنات نعش وأخبرتني أن تلك النجمات السبع مازلن عالقات في الشمال، ولم يعد بوسعهن سوى تذكير الصحراء بالموت، ستلد إحداهن ولدا وتهديه للأرض الجرداء، ستجتمع فيه الحياة والموت. وبعده سيتحررن من تلك اللعنة.

كنت أعد إبريق الشاي عندما صرخ بي، التفت ناحيته، رأيته يشير بسبابته للسماء، وقال بهلع: إنها تتوهج! نظرت فرأيت إحدى النجمات السبع تتوهج بشدة تكاد تضيء الصحراء، ثم تهوي لتسقط خلف الجبال، هرعنا نركض نحو خباء "ساكبة الليل"، صعدت المنحدر الرملي بسرعة، كنت بالكاد ألتقط أنفاسي بينما أسمع الزعيم أمامي يقول: هيا يا حكيم، الليلة لابد أن تعود صبيا، لابد أن تكسر عظامك إن لم تسعفك.

وعندما وقفنا أمام خبائها، صاح الزعيم بصوت متعب: لقد سقطت إحدى بنات نعش.

جاء صوتها كفحيح أفعى: الصحراء جائعة يا "سيط الله"، ومهما حاولت لن تفر منها، في ليلة موتك ستبتهج الأرض، ستغدو أنت مجرد قطعة من الجبال، ثم أخذت تقهقه عاليا وبعد أن انتهت من ضحكاتها قالت:

تلك النجمة سقطت على ظهر رجل يجامع زوجته على صخرة ملساء قتلته لتحتفل بالحياة وهي تدب في رحم زوجته.

ولم تتحدث معنا بعدها، كان الظلام يلف المكان؛ لا أكاد أرى "سيط الله"، أشعر بالظلام والصمت يبتلعان جسدي، حركت يدي بقوة وصرخت كصرخة طفل خرج للتو من رحم أمه لأتأكد من وجودي، رجعنا عائدين بخيبة، كنا كحبتي رمل تاهتا في صحراء شاسعة، لم ننم تلك الليل، جلسنا حول النار، ارتشفنا كثيرًا من القهوة، كان عويل الريح عاليا، وهي تعبث بطرف بيت الشعر، شعرت بالاختناق عندما قال الزعيم: إن الضعف يكمن في العودة للحظات الماضي، عليّ أولا اقتلاع ذاكرتي.

مضت الأيام وكان كل ما يشغلنا هو الجفاف الذي حل بالديار والأطفال المشوهين، قال لي في إحدى الليالي: الأطفال المشوهون الذين ابتلينا بهم، هم نتاج صراع أزلي بين الموت والخلود، هم صورة لضعفنا، لم تعد أرحام نسائنا صالحة للحياة، سيأتي الوقت المناسب للتخلص منهم، سنطلق الأرواح المحبوسة في كتل اللحم تلك، كي تتحرر وتحلق بعيدا وننعم نحن بالحياة بعيدا عن ذلك الصراع.

ولكنني لم أكن أعلم بنيته عندما طلب بالأمس عقد اجتماع تحت شجرة السمر العملاقة، لم أعلم أنه يريد دفن الأطفال أحياء، لا أنكر

أنه خالجني الشك في أنه يريد تقديمهم قرابين لتلك النجوم الحاملة للموت، ولكن لم أتوقع أنه سيفعلها على الأقل في هذا التوقيت.

"أليس غريبا أن تمضي تلك السنوات الست دون أن يموت أحد من القبيلة، ثم في ليلة واحدة يموت كل هذا العدد ويختفي الزعيم أيضا؟" رمى "سعد الأفعى" تلك الجملة بعد أن سكت الحكيم.

ضاعت الإجابات في صمت الصحراء المهيب، سرح بصره في الوجوه الواجمة، ثم عاد ينظر للحكيم قال: علينا أن نجد الزعيم!

وقف "مهلاليل" وأسند ذقنه إلى صدره ومشى بخطى سريعة يتبعه أهل القبيلة، صعدوا المنحدر الرملي، يقتفون أثر سيط الله، وقفو أمام خباء "ساكبة الليل" في أعلى المنحدر حيث انتهى الأثر، لف "سعد الأفعى" عمامته على رأسه ونادى على "ساكبة الليل"، لم يأته جواب؛ كرر النداء دون جدوى، نظر في عيني "مهلاليل" للحظة، ثم انحنى وفتح باب الخباء، وجد "ساكبة الليل" جثة هامدة ممددة على الأرض، عاد للخلف ونكس رأسه وقال مرتبكا: ماتت "ساكبة الليل".

كانت ممددة على الأرض كصبية حسناء، القرط المعلق في أنفها أعطاها جلالًا وجمالًا، ترتدي رداءً مصنوعًا من وبر ناقة، بدت فاتنة، هل للموت أن يمنح الأجساد كل هذا الجمال!

استغرق سعد الأفعى يفكر كيف لم ينتبه لجمالها طول هذا الزمن، قطع حبل أفكاره صوت فاتر خرج من حنجرة فتى هزيل: علينا إحراق هذه الشيطانة في خبائها. نهره الحكيم وقال بحزم: إكرام الميت دفنه. وطلب من "سعد الأفعى" ومجموعة من الرجال حمل جثتها، ود "سعد" لو يحضن جسدها ولو لمرة واحدة، تقاسيم وجهها تظهرها كملاك نائم؛ يستحيل أن تكون شيطانة، إنها فاتنة، يكفي أن أحضن امرأة كهذه لأنعم بالسعادة طوال حياتي، النساء كالمطر يحيين قلوب الرجال لتنبت الحب.

عاد "سعد الأفعى" لفتح باب الخباء ومعه ثلاثة من الرجال، رائحة الشيح تطوف في المكان، ضوء الشمس الخافت يتسلل من فتحات الخباء، نظر سعد الأفعى مليا لوجهها، تراجع للخلف، تعوذ من الشيطان، لم يصدق ما رأى، لم يفهم كيف تبدلت ملامحها بهذه

السرعة، همس في نفسه "على الإنسان العاقل أن يموت مبكرا، قبل أن ينهش الزمن جسده".

لف "مهلاليل" جثة "ساكبة الليل" برداء أسود، وحملها الرجال حيث التبة، النساء يسرن في الموكب متلفحات الحزن يسبقهن رجال القبيلة ويتقدمهم الحكيم و"سعد الأفعى"، بينما جثة "ساكبة الليل" تحمل على الأيادي، ليلقى بها تحت التراب. تحوم فوقها ذاكرة متفجرة بالأحداث، وهناك فوق قبرها ستذبل تلك الذاكرة وتضيع بين كثبان الرمل.

7

تمدد "أنف الكلب" تحت السمرة العملاقة، تأمل أغصانها، داعبت ذاكرته بعض الأحداث، طافت حوله كثير من الأحلام، غفى، فرأى نفسه بين النجوم يغرس أشجار السمر، يطير كفراشة تحلق بين الزهور، فقد الإحساس بجسده تماما، كان كطيف عابر يجوب هذا العالم، فقد الشعور بماهيته، ذابت ملامحه، وعلى الرغم من ذلك، شعر بالمتعة، وجد السعادة، طاف فوق المضارب كنسمة هواء عابرة لا يقيدها شيء.

أعاده لواقعه الصوت نفسه الذي أسره من قبل، صوت الأنثى: أي خيال يا "أنف" يراودك فلا بد له من جذور، فعقلك غير قادر على خلق عوالم أخرى، الخيال يا أنف هو جذر الحقيقة.

اعتدل "أنف الكلب" وجلس القرفصاء، يحدق في هذه الشجرة العجيبة التي جعلته يشعر بالحب لأول مرة في حياته على الرغم من أنه كان كل ليلة يتخيل نفسه يضاجع إحدى بنات القبيلة، يمارس الجنس

دون قيد، لا ينكر أنه فتن ذات يوم بجسد "زهد"، عندما شاهدها عند البئر تملأ القربة بالماء، اختبأ بين أعواد القصب الفارسي، ومن هناك نظر مشدوها يتأمل تفاصيل جسدها، ويرقب كل حركاتها وسكناتها، ولكنه على الرغم من ذلك لم يشعر بالانجذاب الذي يشعر به الآن تجاه شجرة السمر، شعر أن "زهد" جزء متفرع من شيء كلي، أما السمرة فهي كاملة تبدو كوَحدة واحدة.

وقف وقد خطرت على باله فكرة، فراح يركض ناحية الجبل، وعاد بكل حيوية يحمل على عاتقة صخرة كبيرة، عمل لمدة ثلاثة أيام على جمع الصخور، فقد قرر بناء سور يحمي به شجرة السمر، عمل بكل جهد ونشاط، بدأ وضع الأساس، سيكون البناء بشكل اسطواني يحيط الشجرة من كل اتجاه، ومن الناحية الشرقية منفذ وحيد عبارة عن باب صغير سيصنعه من أحد فروع السمرة ذاتها، مع طلوع الفجر، خلع رداءه المصنوع من الجلد، ليبقى عاريا تماما، وبدأ إكمال عمله، رص الصخور فوق بعضها بعضا، ينظر لشجرة السمر من حين لآخر. شغل عن كل شيء سواها ولكنه في أحد التفاتاته للقاع شاهد من بعيد أهل القبيلة وهم يتجهزون للرحيل، فكر في أن يقتلع الشجرة ويحملها

ويرحل مع قبيلته، كان يوقن أن الأرض جاحدة لا تعشق أحدًا؛ لذا لم يكن لديه هاجس الحنين للوطن، فالناس في النهاية هم أثاث الأرض تستبدلهم متى ما تقادم عهدهم، وهذه الصحراء لن تفتقده، بل ستنشغل في ساعة رحيله برفع أذيال ردائها كي لا تتسخ بالذكريات، رفض فكرة الرحيل لأنه أحب البقاء وحيدا، أحب البقاء برفقة شجرة السمر، عندما يحل المساء يقوم بإشعال النار ويعد الخبز ويسخين سمن الماعز البري، رائحة القيصوم تطوف بالمكان حاملة النشوة، يتناول طعامه على ضوء القمر، يشاهد أخيلة التلال والأشجار وكأنها أشباح تحيط به، يقوم بتكاسل ويرتدي ثوبه ليلتف على جذع شجرة السمر وينام بكل هدوء، تعود أن ينام محتضنا جذع شجرة السمر.

سأل نفسه: هل الخيال جذر الحقيقة فعلا؟!

ولكن الحقائق في هذا العالم المجنون يصعب إدراكها.

هل تقصد الشجرة أن وجودي مشكوك به!

هل الحواس التي أملكها مجرد خدعة!

إذن كل ما نستطيع تخيله وجود مسبق أدركناه في لحظة ما!

قارب "أنف الكلب" من إتمام البناء، ولكنه شعر بأن روحه باتت تتهدم داخل جسده، توقف في ذلك اليوم عن العمل، شعر بأنه تائه، استلقى على الأرض وبكى كثيرا، جسده العاري بدا وكأنه قطعة من رمال الصحراء، شعر بداخله أنه مجرد حفنة تراب. لن يستطيع الفكاك، سينتهي به المطاف بأن يتماهى مع رمال الصحراء، وبعد ذلك تلقي به الريح بعيدا فيضيع جسده وتضل روحه طريقها، حدق بعينيه الحمراوين في السماء الشاحبة بنظرات فارغة، نظر لجسده بازدراء. سمع صوت الأنثى: يا "أنف" عندما تبتعد عن ذاتك تشعر بالضياع، ابحث بداخلك عن الحقيقة عن السعادة وعن الحب.

انتفض "أنف الكلب" من مكانه، ارتعش جسده صرخ بصوت أجش عالٍ: ليس بداخلي سوى الخيبات والفراغ، في داخلي صحراء جرداء لا تنبت حتى الأحلام، وجدت نفسي في هذه القبيلة مبتورا بلا أم ولا أب، كنت كمن يسير يجمع الخيبات، التقطها من عيون الناس، ومن نبرات أصواتهم وأزرعها في صدري، أنام في العراء بين بيوت الشعر، مازال صدى ضحكات الصبيان وهم يهزئون مني يتردد في أذني، أول ما أدركت تلك الخيبات كان من زمن بعيد جدا، عندما

سقطت من فوق المنحدر الرملي وتدحرجت، كنت كبذرة شجرة تطير مع الريح في رحلة البحث عن الوجود، تبحث عن أرض تحتضن جذورها، عندما وصلت لأسفل المنحدر، وتوقف جسدي المغبر هناك، كانت الدنيا تدور من حولي، دسست وجهي في التراب علّ هذا الدوار يتوقف، تسلل لجوفي الخوف وشعرت بغثيان وألم، تكاد أمعائي تتقطع منه، حاولت أن ألوذ بالظلام وبالصمت، إلا أن روحي الهائجة كانت تحاول الهرب من هذا الوجع، استغرقت في هذه الحالة دون حراك، حتى شعرت بيد تمسكني من كتفي وتسحبني بكل قسوة، نظر صاحبها في وجهي المغبر وقال: صدق من سمّاك أنف الكلب. ذهب وتركني وحيدا، الصحراء الجائعة وهؤلاء الغرقى في الحياة السعداء بألمي لم يدركوا بعد أنني أفقت من كابوس للتو، ضحكت ملء شدقي، ورقصت على مسرح جهلهم، كنت كطائر فرد جناحية استعدادا للتحليق، ولكن سرعان ما تهاويت مرة أخرى، وأدركت من جديد أن معضلتي تكمن في جسدي، بحثت عن تحرير روحي، كان الموت يفر مني في كل مرة، وآخرها عندما استبعدني "سيط الله" من الدفن.

منذ أن أصبح لي جسد ملكي، أحركه كيفما أشاء. شعرت بالوجع، وبالخوف، حاولت مرارا أن ألحق بالشمس، أردت أن أغيب معها وأعود بشكل متجدد، ولكن هيهات؛ فقد أسرت روحي.

كان "أنف الكلب" يتصبب عرقا، كأنه أصيب بالحمى، جلس يرمق تمازج الشفق مع غيمتين عابرتين، نظر لأقواس الكثبان الرملية ولقمم الجبال، سمع أصوات غناء قادمة من مضارب القبيلة، قام من مكانه، نظر باتجاه المضارب، شاهد أخيلة تتراقص تدور حول نار ملتهبة، ثم استغرق ينظر لشجرة السمر العملاقة مليا، انتفض قلبه وارتعدت فرائصه وقام وعانق جذعها، طوقه بيديه وضمه لصدره، بكى كثيرًا، لأول مرة في حياته ينتبه أن الليل مخيف، شعر أن كتل الظلام تلك هي ظلال الموتى تحاصره من كل جانب، ضوء القمر الشاحب لا يستجيب لاستغاثاته، العاصفة تحمل ضوضاء الفزع وتقدم يرتجف قلبه وجلا ويتساءل: هل يصنع الحب كل هذا الشقاء؟!

أتم "أنف الكلب" البناء، جدار حجري دائري بديع يبلغ طوله خمسة أمتار يحيط بشجرة السمر من كل اتجاه، ومنفذ وحيد من جهة الشرق، بعد أن استراح قليلًا ذهب ناحيه البئر وملأ صفيحه بالماء،

وعاد ينظر للجدار. كان يغطي السمرة تماما قال: هكذا لن يستطيع أحد إلحاق الضرر بها.

سار منهكا أعياه التعب وتمكن المرض من جسده النحيل بعد المجهود المضني الذي بذله في بناء الجدار، استلقى بجوار جذع شجرة السمر عاريا تماما، أدرك أن نهايته أوشكت، فزع لذلك فزعا شديدا: أنا الباحث عن الموت أفر منه الآن!!

رأى القروح تنتشر على جسده، لم يعرف ماذا أصابه، ظن أنه الطاعون، فقد سمع العجائز يتحدثن عن هذا الوباء، وكيف أنه يفتك بالبشر. تحامل على وجعه وكسر غصن من شجرة السمر، والغريب أنه وجد على الغصن القروح نفسها التي كست جسده، أشعل النار وبصعوبة جمع كل الحطب المتناثر في المكان، ووضع أحجارًا متوسطة الحجم في النار وانتظر حتى خمدت، ولم يبقَ سوى الرماد يحيط بالأحجار الساخنة، ودخان كثيف يتصاعد للأعلى ويتلاشى، استلقى على ظهره فوق النار، شعر بالأحجار الملتهبة والجمر المتوقد، تخترق جسده تحامل على نفسه، نظر ناحية السماء، شاهدها تسقط جالبة معها الظلام الذي اجتاحه، فلم يستطع رؤية أي شيء، لم يفق من غيبوبته إلا

بعد يومين، فتح عينيه، رأى طيور القمري تتقافز على أغصان الشجرة، اشتم روائح الأزهار البرية، شعر بنشوة جعلته يقف منتصبا، نظر لجسده وقد شفي تماما، ولم يتبقّ سوى ألم الحروق على ظهره، جمع الصمغ من أغصان شجرة السمر ودهن ظهره به، استمر على هذا الحال ثلاثة أيام حتى شفي تماما من الحروق.

ولكن جرح روحه مازال ينزف؛ فقد انتبه أن شجرة السمر لم تكلمه طوال تلك الفترة، لم تنطق حرفًا واحدًا وهو كان بأمس الحاجة، لم يواسِه ويقف بجانبه؛ حَزِنَ كثيرًا لذلك الأمر، قال وهو ينظر للجدار الحجري: لقد فعلت كل ذلك لأجل أن أستحوذ على الحب، كي أهرب من جحيم البشر، أتكون الأشجار جاحدة كالبشر!

كل شيء في البدايات يبدو جميلا ثم يتحول لقبح.

ولكن شجرة السمر ليست قبيحة، هي فقط غاضبة لأنني لم آخذ رأيها في الجدار!

همس "أنف الكلب" بتلك الكلمات عندما أدار ظهره لشجرة السمر محدقا في قرص الشمس القادم من خلف التلال، في تلك الأثناء، شعر بشيء يجذبه للأرض، وكأن جذورًا نبتت منه تغلغلت في

التربة، لم يعد قادرا على فعل أي شيء، فقد سلم نفسه لمتعة الانجذاب للأرض، تيبس في مكانه وقبل أن يغيب عن عالم الوعي، سمع صوت شجرة السمرة: أحب يا "أنف".

8

النهد والقضيب يعنيان الحياة التي تبحث عنها، ممارسة الجنس تجعلك كائنًا آخرَ يحلق كطائر غادر عشه للتو، لذا عليك يا "سيط الله" أن تُهدي عقلك لإحدى الفراشات، وثق تمام الثقة أن جسدك سيضيع في رمال الصحراء ذات يوم، لا تبحث عنه، دعه يمتزج بالأرض ويذوب، لم تقتنع بعد أنك مجرد لحظة عابرة ستبتلعها دوامات الزمن، سترحل الريح برفقة الذكريات وتخلفك في صراع أزلي مع الذات ومع الآخرين.

لا تعتقد أن الصحراء جدباء، إنها حبلى بالأمنيات، الجدب ليس سلاحًا للموت كما تعتقد، بل الزمن هو سلاحه الفتاك، لذا فإن معركتك مع الموت خاسرة منذ البداية.

سارع إلى عزلتك يا "سيط الله"، أنت لم تولد بعد، ولتتأكد من ذلك قف فوق تلك النجمة، ستشاهد أن العالم يدور، كل شيء يدور

وأنت ساكن معلقٌ بين سماء وأرض، سيبتلع بقاياك ظلام الكون الموحش.

فتح "سيط الله" عينيه، رأى وهج الشمس الساطع يلاحق بقايا الظلمة يدحرجها بعيدا حيث الغياب، الندى يمسح وجه الصحراء الناعس، نسائم عليلة تداعب أغصان الشجيرات الصغيرة المنتشرة في كل مكان، قطع من السحاب تعبر الفضاء على مهل، جبال من الرمال جمعتها العواصف على مدى عقود، وجبال صخرية مرتفعة بقمم متفاوتة تكون سلسلة صلبة تمتد شمالا.

لا يعلم "سيط الله" كيف حل في تلك المفازة الشاسعة، لا يعلم من أين جاءه ذلك الصوت، قعد على تبة مرتفعة، حاول أن يستجمع الأحداث، مر أمامه طيف "ساكبة الليل" سأل نفسه: هل ماتت؟

عندما فتح باب خباء "ساكبة الليل " شعر أن شيئا يطوقه ويحمله عاليا، من يكون ذلك سوى ريح عابثة حملت جسده، ريح أصابها الجنون، تكاد تقتلع كل شيء يقف في طريقها، حتى تلك الجبال الشامخة كادت أن تقتلعها، توشك أن تمزق جسد "سيط الله"، عندما

تشبث بكلتا يديه بصخرة في أسفل أحد الجبال، شعر أن أجزاء من جسده طارت مع الريح.

عندما استيقظ شعر بألم في كلتا يديه، تفقد جسده جيدا، كان سليما. قام ينظر لقمم الجبال الشهباء وأقواس الكثبان الرملية وشجيرات الرمث، طوقته رائحة نبات القيصوم المنعشة، شعر أنه عاش تلك اللحظة من قبل، شعر أنه يعرف هذا المكان جيدا على الرغم من أنه لأول مرة يراه.

دوت في رأسه كلمات "ساكبة الليل": "امسح ذاكرتك بحجر"!!

قبض على حفنة من التراب لتنساب من بين أصابعه، بينما راح يفكر فيما تكمن قوة الإنسان، كيف يستطيع أن يتخلص من قيود الزمن؟ كيف له أن ينعتق من أسر الذكريات؟ قال وهو يرمي بحصاة بعيدا: أيّة ذاكرة تريدني أن أتخلص منها ذاكرة البشرية أم ذاكرة الروح أم ذاكرة الجسد؟!

جاءه صوت تاه عن الأسماع بين شجيرات الرمث لزمن اختبأ خلف كومة صغيرة من الرمل كي لا يبتلعه الفراغ الجائع، جاء

الصوت منهكا ثقيلا يتلمس طريقه لأذني "سيط الله": لم أكن أعلم أن خروجي من رحم والدتي يعني أنني قد دخلت سجن اللحظات، وأنني سأموج في بحر الزمن الهائج، تهب عليّ رياح الأيام وتمزق أشرعتي أنواء الذاكرة! مللت تلك الوجوه التي رأيتها مرارا وتكرارا، تقتحم مجال رؤيتي، بعضها باسمة وأخرى عابسة، لم أكن مستاء لأن أول شعور إنساني تملكني هو الكره، فقد كنت أحمل الكراهية لتلك الوجوه ربما لأنني مجلوب على الصدق والكراهية، أصدق شعور بعكس الحب الذي تشوبه كثير من الشوائب".

قال "سيط الله" بعد أن تغلغل ذلك الصوت بداخله واقتحمت الكلمات عقله: إنه صوتي، نعم، هو صوتي، لقد قلت تلك الكلمات في مكان ما، لشخص ما في زمان ما! هل يعني ذلك أنني شهدت تلك الأزمان كلها دون أن يكون لها سطوة عليّ؟ ولكن عندما وعيت بذاتي علقت بها!

الماضي والمستقبل يمتزجان في هذه اللحظة، عليّ بالتحرك وإلا سأصبح كتلك الأكمة، سينبت الحنظل على جسدي وسيطوقني بجذوره.

وقف "سيط الله" ينظر حوله، صعد فوق جبل من الرمل ليستطيع الرؤيا بشكل أوسع، أراضٍ جدباء بامتداد البصر، وفي ناحية الغرب شاهد جبل أبو مخروق يقف وحيدا، ومن خلفه تظهر سلسلة جبال تأخذ أشكالًا متعددة. شاهد في السهل الممتد أمامه بعض الأعشاب اليابسة تغطي الرمال، أجزاء كبيرة منها وتدفن بعضها بعضا. قال: هذا المكان مهب العواصف، عليّ أن أغادره بأقصى سرعة.

توقف كثيرا أمام آثار غزال يتجه للشرق، فكر في أن يتبعه ولكنه تراجع فإذا فعل ذلك سيعود للضياع مرة أخرى، سيكون مجرد إنسان عابر لهذه الحياة، وهو من ضحى بكل شيء لأجل أن يمتلك عمرًا كعمر الصحراء، لا يقدر أن يتخيل مجرد التخيل أن تسير الحياة بدونه، الموت مصيبة عظمى. يتصبب عرقا، وتجتاح جسده الحمى كلما ذكره. "ثاقب"، مات وهو يعتقد أنه انتصر على الموت بقطعة اللحم تلك التي خلفها وراءه، كل ما فعله أنه جعل للموت امتدادًا، أعطى للموت فريسة جديدة يقتات عليها.

هل الحياة شكل من أشكال الموت؟!

بعض الناس يملأ عقله بالوهم كي يتجاوز هذه الحياة، وبعض آخر يجن، وكثير من الناس يدخلون في غيبوبة الأمل. أما أنا، فلن أستسلم بسهولة؛ سأحارب حتى اللحظة الأخيرة، وسأرقص على جسد الصحراء الميت!

الرقص المتمثل في حركات غير معتادة للجسد، ما هو إلا طقوس تمارس لمحاولة الهروب من الواقع، وايهام الروح أن الحياة تتجذر في هذا الجسد المتحرك وأن هذا الجسد غير معطوب فتبقى ولا تغادره.

رقص "سيط الله" تلك الليلة، دار بجسده وكأنه إعصار هائج طوح به يمينا وشمالا، قفز وسقط وانتهى به المطاف مستلقيا على ظهره في مذبح البشرية المتسخ بالشرور، حدق بعينيه الغائرتين للسماء مجموعة من الطيور تحلق بعيدا، وضع يده على بطنه: كدت أنسى أنني جائع.

هرع من فوره يبحث عن الطعام، اقتفى الأثار على الرمال، أثر يربوع يبدو أنه عبر من هنا منذ يومين أو أكثر، لم يطل به الوقت حتى شاهد أثر طائر يتجه ناحية شجرة صغيرة، لابد أنه طائر حجل قرر أن يختبئ عن حرارة الشمس تحت ظل الشجرة، تقدم "سيط الله" بحذر،

حبى على ركبتيه، دار حول الشجرة الملامسة للأرض، رأى أربعة من طيور الحجل، هجم عليها، فرت، ولكن واحدة علقت في أحراش الشجرة، حركت جناحيها بقوة محاولة الهرب، ولكن "سيط الله" استطاع إمساكها. توجه لكفل جبل رملي طرح ظله، وهناك نزع رقبة الحجل بعد أن أشعل النار، ثم بدأ نتف الريش، تصاعدت رائحة الشواء وطافت بالمكان، شحم الطائر يقطر على الفحم يقلبه سيط الله بعصًا صغيرة.

أخرج اللحم المشوي، جعله يبرد قليلا، أخذ قطعة، وما أن وضعها في فمه حتى لفظها، قال وهو يتفل على الأرض موبخا نفسه: الباحث عن الخلود لا يتوجب عليه أكل الطعام، عليّ أن أكمل ما أتيت لأجله.

قرر أن ينام في كفل جبل الرمل تلك الليلة، وراح من فوره يجمع أعواد الحطب ويضعها على النار لتظل مشتعلة طوال الليل، الشمس غادرت السماء وحل الظلام، ثعلب جائع تسلل في الظلام من بين الشجيرات، اختطف طائر الحجل المشوي وغاب خلف التلال يفترسه هناك على عجل خوفا من أن يشاركه أحد وجبته الشهية.

تمدد "سيط الله" بجوار النار بعد أن دحى الرمل ليجعله متساويا، ورسم على الأرض بإبهامه دائرة حول المكان الذي سينام فيه لِتَقِيهُ دواب الأرض، نظر للنجوم التي تملأ سماء الصحراء، الشهب تتساقط من حين لآخر، الشهب إذا تساقطت بهذا العدد الكبير، فإن ذلك يعني أن سيدا قد مات. تساءل: هل مات الحكيم "مهلاليل"؟

اعتدل عندما سمع أصواتًا تقترب منه تنادي باسمه: سيط.. سيط الله.. سيط. أصوات نساء وأطفال ورجال؛ دب الرعب في قلبه، لا أحد يقطن هذه الصحراء الجرداء، ولا أحد يعرف اسمه، اعتدل فزعا نظر مليا من حوله شاهد خيال رجلين يتقدمان باتجاهه، انحنى وتناول قبسًا من النار، شوح به وقال: من أنتما؟

جاءه صوت أحدهما وكأنه فحيح أفعى: نحن أسياد هذه الأرض، بعثنا الزعيم لنحضرك.

أحدهما كان يرتدي جلبابًا أحمرَ وعمامة حمراء مقلمة بخطوط سوداء، والآخر يرتدي قميصًا أبيضَ اللون وعصابة سوداء، اقتربا كثيرا من سيط الله.

قال صاحب الرداء الأحمر: لماذا لم تغادر المكان عندما شاهدت النجوم تتساقط؟

حدق "سيط الله" في وجهيهما، تصبب عرقا، لم تكن لهما ملامح، وجهيهما عبارة عن قطعة من الجلد، وأعناقهما طويلة جدا كعنق نعامة، تراجع للخلف، سقط على الأرض، ظهر الرجلين بجواره بسرعة غير طبيعية، رائحتهما الكريهة تطوق المكان، مد صاحب الرداء الأحمر يده باتجاه سيط الله، الشعر يغطي اليد ذات المخالب الطويلة، تشبه يد ذئب. حينها أدرك سيط الله أن نهايته قد أوشكت، وضع يده على كتف سيط الله وهزه بعنف وأعاد السؤال: لماذا لم تغادر المكان عندما شاهدت النجوم تتساقط؟

حاول سيط الله الحديث، لم يستطع، جف حلقه، وذابت الكلمات في فمه، أمسكه الرجلان وطارا به عاليا إلى أن وصلا لطريق ضيق بين جبلين هناك، هبطا وسارا بسرعة يمسكان سيط الله بينهما، نظر سيط الله من حوله، رأى كائنات غريبة أفاعٍ برءوس بشرية، وأشجار تتدلى منها جماجم بشرية، أدرك أنه في عالم آخر وعليه أن يرمي بخوفه جانبا كي يستطيع التعامل مع هذا العالم، اقتاداه إلى أن وصلا إلى ممر ينتهي

بصخرة مليئة بالنتوءات، لم ينتظر كثيرا حتى خرج من تلك الصخرة رجل فارع الطويل، وجهه عبارة عن قطعة جلد، جسمه ممتلئ بالشعر، يداه كيدي ذئب، وقف أمام سيط الله وقال بلهجة ساخرة: أتبحث عن الخلود؟

انتفض قلب سيط الله، شعر بالحمى تجتاح جسده، وقال بصوت خائر: أنا ابن هذه الأرض أفلا يحق لي أن أظل بجوارها أن أرافقها كما تفعل الجبال؟

قال الرجل: منذ أن خلقت الأرض، لم يأتِ إلى هنا أحد وعاد مرة أخرى، ولكنني سأمنحك هذا الاستثناء، كي تدرك حقيقة واحدة غابت عنك عندما افترشت الأوهام، هيا عد من حيث أتيت.

دون أن يشعر وجد سيط الله نفسه في مكانه بجوار النار التي أشعلها، لم يستطع المكوث، غادر من فوره يتلمس طريقه إلى جبل أبي مخروق، يفكر في ما حدث له. قال: كنت أعتقد أنني عرفت الصحراء وأنا الذي أمضيت خمسين عاما أجوبها، أفترش أرضها وألتحف سماءها، ولكن يبدو أنها تخفي الكثير.

الشمس جاءت برفقه الفجر لتطرد الليل عن جسد الصحراء وتمنح الأرض الدفء، وسيط الله يجوب المفازات، يرمق قمة جبل أبي مخروق، تتراءى من بعيد فيسرع الخطى، وصل في منتصف الظهيرة، كان الجبل مهيبا. استراح في ظل صخرة أسفل منه، تمتم بصوت خفيض: أين سأجد الصندوق ومن سيمنحني الكرسي.

راح في نوم عميق، غادرت روحه تسبح في عوالم أخرى، بينما جسده المتعب ظل مرميًّا أسفل الجبل، استيقظ فَزِعا وقد قاربت الشمس على الغروب، هب واقفا، صعد الجبل برشاقة يؤمل نفسه أن لم يتبقّ سوى قليلٍ يسيرٍ كي يحوز السر ويجد كرسي الوصايا. نظر للصخرة المخروقة بثقب دائري نافذ في أعلى الجبل، شاهد كثيرًا من النقوش. عجلان يتصارعان، أمامها يقف رجل بلحية طويلة، يرفع يديه للسماء. توقف كثيرا أمام نقش الكرسي، شاهد نقش النهد والقضيب الذكري. تجاوز كل ذلك متجها نحو الصخرة، ألقى نظرة على الصحراء، شاهد كثبان الرمال والتلال والشجيرات الصغيرة. قال: النظر للأشياء من الأعلى يجعلك عارجا عن معادلاتها، قادرًا أن تميّزها. عاد لمواصلة التسلق، ولكنه شعر أن جسده تيبس مكانه، رأى

الصخور تحاوطه من كل جانب، تحجر جسده داخل إحدى تلك الصخور ليظهر من خلالها كرجل يحاول التسلق ولا يستطيع، سجن في تلك الصخور للأبد وبات يعرف الجبل بجبل الرجل العاجز.

9

جثة "ساكبة الليل" الملفوفة بجبة سوداء محمولة عاليا على الأيادي تتوسط موكب الناس المتجهين ناحية التبة، أشعل "مهلاليل" غليونه ونفث الدخان من فمه، توجه بنظره إلى "سعد الأفعى" الذي يسير بجواره في مقدمة الركب، قال بصوت متعب: عجيبة هذه الدنيا على الرغم من كل المصائب هذه إلا أن أجمل طقس أشهده منذ زمن هو طقس هذا اليوم!

انتظر أن يجيبه "سعد الأفعى"، ولكنه لاذ بالصمت، فواصل الحكيم حديثه: قبل زمن بعيد، عندما كنت شابا يافعا، كان أبي قد أنهكه الشيب، انحنى جسده، جعله مترهلًا خائرًا بلا قوة، وجعل روحه زاهدة عن كل ملذات الدنيا، وعلى الرغم من ذلك، عندما حضرته الوفاة، تحسر كثيرًا على أنه سيموت في طقس جميل، داعبت جسمه المترهل نسمات باردة، وأغرى روحه صوت قصف الرعد وكتل الغيوم السوداء التي تطوف في السماء، المطر يكاد ينهمر ورائحة

الحطب تمتزج برائحة القهوة، استغربنا عندما رأيناه يقف على قدميه، ويركض كطفل صغير يسيل لعابه وتأسره الدهشة، ولكن سقط على الأرض مفارقا الحياة.

صمت الحكيم بعد أن قاطعه "سعد الأفعى": مازلت أتذكر ذلك اليوم الذي قدمت فيه "ساكبة الليل" للمضارب، كان الطقس جميلا أيضا، مررت بجوار خبائها قبيل وقت الغروب، هبت عليّ النسائم العليلة من الغرب، الجبال ارتدت الشفق لتبدو في أجمل حللها، والعتمة المعجونة ببقايا ضوء الشمس كانت فاتنة جدا، جعلت كل شيء يبدو في أفضل حال، سرت على الرمال الباردة صاعدا المنحدر، حينها رأيت ساكبة تختبئ في خبائها، ولكنني لم أدرك أنه سيكون لها هذا التأثير في المضارب.

لقد جلبت معها الموت يا سعد، قدمت بجثة زوجها لتودعها في رمال القاع.

هل كان لها علاقة باختفاء "سيط الله"؟

بدأت أشك في ذلك، اختفى أثره أمام خبائها!

قاطع حديثهما صوت جلبة قادم من وسط الركب: إنها تتحرك.. شيطانة لا تموت.. الجثة تهرب!

الجثة تهرب!

جثه "ساكبة الليل" فلتت من الأيادي، سقطت وتدحرجت إلى أسفل المنحدر، طارت الجبة السوداء من فوقها وتمزقت ثيابها، تدحرجت الجثة بسرعة كبيرة جدا وكأنها تسابق الزمن، تهرب من الناس، ركضت مجموعة من الناس خلف الجثة المتدحرجة التي تجاوزت الشجيرات بدقة لا تصدق وكأنها ترى طريقها وتدرك إلى أين تتجه.

أتهرب الجثث؟

كل شيء جائز في هذا القاع.

لم تكن لدى الحكيم اللياقة الكافية لمطاردة الجثة الهاربة! لذا اكتفى بأن زعق فيهم جميعًا: أوقفوها قبل أن تتجاوز المنحدر، أوقفوها بأيّة طريقة.

ضرب كفا بكف وقال: هذا ما كان ينقصنا. ثم أسرع الخطى في أثر الجثة.

كان "سعد الأفعى" وبقية الرجال قد وصلوا لأسفل المنحدر حيث توقفت الجثة العارية. هناك وقف "سعد الأفعى" يتأملها بعينين فزعتين، نهداها مترهلان وعيناها مفتوحتان على اتساعهما، يخرج سائل أبيض ذو رائحة كريهة من فمها، التفت وراءه: أين "مهلالیل"؟ أين الحكيم؟ أحضروه حالا!

وصل الناس، تحلقوا حول الجثة ووصل الحكيم منهكا، أشار له "سعد الأفعى" بالنظر للجثة وقال: انظر أيها الحكيم للعنق هناك شيء ما يتحرك!

تقدم الحكيم ووقف فوق الجثة، وبعصى طويلة لمس عنق "ساكبة الليل" نكش شيئا أسود تحت تفاحة آدم، حركه بقوة، أزاحه إلى جانب العنق، كان كخيط أسود ينفذ لجسدها، تحرك للخارج ما أن حركه الحكيم. تراجع الناس للخلف، همس لـ"سعد الأفعى": هذا أمر يفوق الخيال، إن الذي خرج من جسد "ساكبة الليل" ثعبان، نعم، ثعبان.

توارى الثعبان خلف أكمة بعيدة بعد أن انسل بسرعة من بين الناس، مسح سعد الأفعى العرق من على جبينه بطرف عمامته، ونظر في عيني الحكيم: وماذا يعني ذلك؟

انتبه الناس إلى أن جثة "ساكبة الليل" أخذت تنتفض، وفي كل مرة كان يتناثر منها التراب، استمرت كذلك إلى أن تحول جسدها بكامله لرمل، غدت كومة من الرمل فوقها قرط ذهبي كان معلقا في إحدى فتحتي أنفها.

قالت "أم المغيث" بعد أن جثت على ركبتيها: أيّة قسوة تلك، كأن "ساكبة الليل" لم تكن في يوم من الأيام روحا وجسدًا! أيعقل أن تغدوا مجرد كومة من تراب! أيعقل ذلك!

ربتت إحدى النساء على كتفها، وقفت حولها مجموعة من النساء، بينما تقدم "مهلاليل" وتناول القرط الذهبي ورماه في حجر "أم المغيث "وقال لها: احتفظي به معك وإياكِ أن تضيعيه.

ثم أمر الرجال بوضع حجارة صغيرة حول كومة الرمل، وجهز بنفسه شاهدا وضعه على الكومة.

التفت إلى "أم المغيث" وقال بانكسار: يبدو أن كل شيء بات جائزا في هذا القاع؛ علينا أن نرحل في أقرب وقت.

لم تزل شمس العصرية تلون رمال الصحراء بلون الذهب، تنشر الدفء في أرجاء المكان، بعض الطيور تختبئ بين شجيرات الرمث، تتراءى من بعيد قطعان الماشية الهزيلة ترعى الأعشاب اليابسة، رغاء بعير هائج يجتاح المسامع.

سأل مهلاليل: هل بقي أحد في المضارب؟

قال سعد الأفعى: كل أهل القبيلة حاضرين ما عدا "أنف الكلب"!

ولماذا لم يحضر؟

المسكين منذ الاجتماع لم يبرح السمرة العملاقة، رآه بعض الناس عاريا هناك، هو لا يرغب في الرحيل معنا يريد البقاء في القاع.

استدار مهلاليل ونظر لأهل القبيلة. قال بجدية: القيظ على الأبواب، لابد أن نتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة. وبعد لحظة صمت بسيطة حدق فيها في الوجوه الواجمة وقال: فلنتوجه الآن نحو التبة ومن ثم يذهب كل منكم ليجهز نفسة للرحيل.

تحرك الناس يتبعون الحكيم، تحفهم أحاديث الخوف. هبطوا الوادي، قالت "دايعون" تخاطب هاجعة: القيظ يعني الموت!

-أن نموت في يوم واحد ذلك أفضل بكثير من أن تتقاسمنا الأيام، ليتنا نبقى في المضارب ونتلحف الأرض، بذلك لن يلد الزمن مزيدا من الأيام، سيتوقف!

-لن يتوقف الزمن بموت أحد، بل سيمضي في طريقه يبتلع الأحداث والبشر.

- ليت المشكلة في القيظ يا "دايعون"، فإننا نستطيع تجاوزه كما فعلنا في الأعوام الفائتة، ولكن المشكلة تكمن فيما حدث للقاع، وما سيحدث في قادم الأيام!

اقترب الناس من التبة، أشار مهلاليل بيده لكتلة سوداء فوقها. قال: ما يكون ذلك السواد؟ يبدو لي أنه فوق قبور الأطفال المشوهين تماما! أليس كذلك يا سعد؟

-نعم، إنه يتوسط التبة، لم نفرغ من مصيبة "ساكبة الليل" حتى تظهر لنا هذه الكتلة.

أخذ "سعد الأفعى" مجموعة من الرجال وصعدوا إلى هناك، شاهدوا طيور عملاقة تشبه النسور برقاب طويلة ومناقير معقوفة، اثنان منها نهشا الناقة الميتة وثلاثة أخرى تحلقوا حول جثة عطية، هجم الرجال عليها ممسكين بالعصي والحجارة، وركضوا باتجاهها يصرخون بصوت واحد: الموت لك أيتها الطيور الملعونة.

انهالت عليها الحجارة من أيدي الرجال الغاضبين، تحركت الطيور بتثاقل، ركضت لمسافة قصيرة حتى استطاعت الطيران، أحدها استطاع الهرب برأس عطية، انضمت الطيور للكتلة السوداء وغادرت متجهة ناحية الشرق.

وصل مهلاليل مع بقية الناس للتبة، سرح بصره في المكان، كان المشهد يائسًا جدا، شواهد قبور الأطفال المشوهين، ودماء الناقة، وجثة عطية منهوشة وبلا رأس، "سعد الأفعى" ورفاقه افترشوا الأرض وتلحفوا الصمت ينظرون للأسفل. صاح الحكيم بصوت عالٍ: المصائب تنهال علينا، هل ستستسلمون لها؟ هيا يا سعد أفق من ضعفك، قم أنت والرجال أمامنا كثيرٌ من العمل.

-عطية الذي بحث عن الموت رأسه طار برفقة الطيور، ونهداه نهشا حتى ظهرت عظام صدرة. فماذا سيحل بنا نحن الذين قدمنا كل شيء لأجل أن نحوز على الحياة؟

قال "شاهر" ذلك وصرخ في وجه الحكيم: أنت تسقينا الوهم، احدودب ظهرك ومازلت تعيش في أوهامك، لن نتبعك بعد اليوم.

ثار الرجال وبكت النساء، تداخلت الأصوات، التصق الأطفال بأجساد أمهاتهم، تداخلت المشاعر، خوف وترقب وغضب، لم يعد أحد قادرا على التحكم بأعصابه، مطالبة الحكيم الناس بالهدوء لم تجدِ نفعا، لذا قرر أن ينسحب لطرف التبة ويجلس هناك إلى أن يهدأ الناس.

الشمس تسقط خلف الكثبان الرملية يقدم الظلام من الشرق، الريح تجوب بين الناس تحرك عمامة "سعد الأفعى"، تعبث بطرف رداء هاجعة، تثير التراب فوق قبر المغيث، تنفذ من جسد عطية المنهوش، تغيب الأصوات في فضاء الصمت، يموت الكلام على الشفاه، لحظة انفعال واحدة قادرة أن تجعل الروح تثور بلا مبالاة، وتجعل الجسد وكأنه خارج من غمار معركة طاحنة.

انتبه الناس إلى أن الحكيم يجلس القرفصاء على طرف التبة وينظر باتجاه المضارب التي غرقت في الظلام، راحوا يجرون أقدامهم متجهين ناحيته رموا بأجسادهم هناك متحلقين حوله.

قال لهم الحكيم: احرقوا جسد الناقة، وادفنوا جثة عطية في القبر الذي حفره هو بنفسه.

حمل "سعد الأفعى" جثة عطية بين يديه، حاول ألا ينظر لها، وعلى الرغم من ذلك، أمعن النظر فيها، عظام الصدر تظهر بارزة، تلتصق بها قطع من اللحم، وعروق تتدلى من الرقبة، الدماء تسيل من كل جانب، كاد أن يستفرغ، شعر بدوار، تمالك نفسه، جثى على ركبتيه أمام القبر، وقذف بالجثة في القبر وأهال عليه التراب، قال وهو ينفض الغبار عن ردائه الملطخ بالدم:

-هذا ما كنت تريد يا عطية.

أضرم بقيه الرجال النار في جسد الناقة، وفي طرف التبة جلسوا جميعًا يتسامرون، يحفهم الظلام من كل جانب، النجوم تزين السماء، نباح الكلاب حول المضارب يصل لحواف التبة ويذوب، الشهب تسقط بكثرة من السماء. قال مهلاليل: إن سقوط الشهب فأل سيء،

أخشى أن الزعيم "سيط الله" قد مات، فهذه النجوم لا تسقط إلا إذا مات سيد.

نفحات باردة تهب، تخدر الأجساد المنهكة، وتطوف حول الناس تجعل الأطفال يستسلمون للنوم.

-مع طلوع الفجر سنرحل، فلتستعدوا جميعًا. قال الحكيم جملته وانصرف هابطا للمضار.

قالت: "هاجعة"، أي موت ذلك الذي سيحل بالروح عندما يذكر الرحيل مجرد ذكر، زرعت روحي بجوار البئر، التفت على النخيل ونثرت الذكريات حولها لتتمدد جذورها بعد موتي والآن تقتلع بعد أن أينعت.

قال سعد الأفعى: البقاء يعني الموت.

10

"في ما مضى، كان قاع بني مرة جنة على الأرض؛ فالعيون السائحة على وجه الأرض، والنسيم العليل ورائحة ثرى الأرض، وملامح الفرح التي يرسمها المطر على محيانا تجعل الحياة تدب في المكان، المراعي غنية بأصناف الأعشاب، كل شيء في القاع كان يحرض على الحياة! ولكن منذ أعوام مضت، تغير حال القاع لم يعد ينبت الحياة". كلمات "دايعون" تلك التي قالتها ذات يوم بجوار البئر تجوب الآن في رأس هاجعة، تتمنى لو تعود الحال كما كان، ويبقون في المكان الذي امتزج مع أرواحهم وشكل وجدانهم، إنهم يشبهون قاع بني مرة تماما، كأنهم قطعة منه؛ لذا كان الرحيل موجعًا بالنسبة لهاجعة ولكثير من سكان القاع.

في ليلة الرحيل وبعد أن أشعلت "هاجعة" النار أمام بيتها، ذرعت المكان ذهابا وإيابا، تعتصر الذكريات، تتراءى لها تلك اللحظات عندما خطبها "ثاقب"، اختارا هذا المكان سويا في طرف

القاع لينصبا بيتهما فيه، اشتغلت ليل نهار يعاونها نساء القبيلة في غزل ونسج بيت الشعر، استخدمت شعر الماعز ووبر الأبل، وبعد شهرين من العمل الشاق أصبحت أجزاء البيت جاهزة، السقف والأروقة الخارجية يتوسطها خط باللون الأبيض.

نصب الرجال البيت عمودين داخليين، يحملان السقف المصنوع من شعر الماعز، إضافة لتسعة أعمدة جانبية يلف عليها الرواق الخارجي، ويربط مع السقف بوصلات تشبه المسامير، ثم ربطت الأطناب بالأوتاد، ليشد البيت ويثبت. وبعد كل هذا الجهد حصلت على بيت صغير يفي الغرض، أشار "ثاقب" أن يكون قسم النساء في الناحية الشرقية القاطع الذي يفصل بين القسمين، زينته هاجعة بوبر الأبل بعد أن صبغته بالعرن، فظهرت خطوط حمراء جميلة تتوسط شعر الماعز الأسود، فرشت قسم النساء بالزل المصنوع من الصوف، ووضعت به المخاد والعدول المصنوعة من الجلد لتضع بها الحبوب، أما قسم الرجال ففرشته بالحصير والجواعد المصنوعة من صوف الضأن.

تخفق الريح في البيت الجديد حاملة نسمات نديّة، وثاقب وهاجعة يتسامران على ضوء القمر، توسدت فخذه، تنظر للسماء، بينما قام هو بالعبث بشعرها الحريريّ. وضع كف يده على فودها وقال هامسا:

-فيمَ تفكرين يا مهجة القلب؟

- أخشى أن أخبرتك تنعتني بالمجنونة.

-بل أنا المجنون بك؛ هيا قولي، تحدثي.

مالت بكل جسمها على جنبها الأيمن ونظرت في عينيه وقالت بغنج:

- أخشى أن أفقدك في يوم ما، الحياة بدونك كوطن قاحل.

- إذا حل بوطنك القحط فأمطري، فعجلة الحياة لا تتوقف برحيل أحد.

حل صمت طويلًا، نسمة هواء باردة تداعب شعرها، ضمها ثاقب إلى صدره وقال:

-نحن كبشر يا حبيبتي، شهدنا خلق الكون، كنا بجوار تلك النجوم، ونزلنا على الأرض فقط كي نموت!

-لا أعلم لماذا أشعر بارتياح شديد عندما أنظر لنجمة بعينها، أشعر بالأنس. منذ أن كنت طفلة وأنا أحدق بها حتى أنام، ربما هذا يشبه ما قلته أنت للتو أليس كذلك؟

حملها بين يديه وقبلها بين عينيها وقال:

-هيا فلندخل، أخشى أن يصيبك البرد بأذى.

قفزت إلى ذاكرتها لحظات أخرى عندما نظرت للعمود الذي كانت تضع بجواره ابنها "المغيث"، لاحت أمامها تلك اللحظة التي جاءتها بها "دايعون"، كان الوقت ظهرا، وهاجعة ممددة على الفرش في ركن البيت تنظر للمضارب، تشاهد أخيلة الناس من بعيد، منهم من يسير حاملا قرب الماء ومنهم من يعود حاملا الحطب، اعتدلت عندما سمعت صوت "دايعون":

_ يا هاجعة! يا أهل البيت!

قابلتها هاجعة متهللة فرحة بقدومها، جلستا في قسم النساء، أشعلت النار وقامت بصنع القهوة على الفور.

بعد أن ارتشفتا أقداح القهوة، همست "دايعون" وهي تنظر لبطن هاجعة المنتفخ، وقالت لها لابد أن أحادثك في أمر مهم للغاية وتعلمي أن مصلحتك تهمني!

قالت لها هاجعة باهتمام: تحدثي، قولي كل ما تريدين لا داعي لهذه المقدمات.

قالت دايعون:

إن بداخل رحمك شيطان عليك التخلص منه وإلا ستعيشين في شقاء.

غضبت منها وقالت في نفسها النساء حاسدات يستكثرن عليّ الحمل بولد يرث ثاقب ويكون امتدادًا له في الحياة.

اعتدلت في جلستها: تعلمين يا دايعون كم أُودك؛ لذا لا تتحدثي عن ابني بهذا السوء.

جلست بجوار العمود، نظرت لمكان "المغيث"، تذكرت نظرات عينيه الفارغتين وجسده الرخو، تذكرت أنه كان مجرد قطعة لحم، وعلى الرغم من ذلك بكت كثيرا، لامت نفسها لأنها قدمته للموت بيدها، ولأنها وثقت في "سيط الله" الذي اختفى ولا يعلم أحد عنه شيئا.

اليوم ستطوي بيت الشعر وتضعه فوق ظهر بعير لترحل بعيدا، وستطوي الذكريات أيضا معها.

الزمن يتحرك ككتلة واحدة، يدور حول نفسه حتى يفرغ ما في جوفه من البشر! ومع بزوغ الفجر، نهضت الجمال بتكاسل، لم تعتد على الثقل الذي تشعر به فوق ظهورها؛ فمنذ زمن بعيد لم تحمل كل هذه الكمية من المتاع، ولكنها اليوم تستعد لرحلة لا أحد يعلم نتائجها، رحلة يحفها الرجاء والأمل والموت.

على الرغم من أن أهل القاع اعتادوا الاستيقاظ مبكرا، إلا أن وجه هاجعة الناعس دل على أنها لم تنم سوى سويعات قليلة، كانت ترتدي رداءً أسودَ من الجلد مجعدًا، وتعصب رأسها بقطعة قماش سوداء، توجهت نحو البعير الذي يحمل بيتها المطوي على ظهره، أمسكت بخطامه واقتادته إلى حيث يجتمع أهالي القاع، وجدتهم جميعًا هناك مستعدون للمغادرة.

يعلم "مهلاليل" أن القاع هو أخصب الأراضي في هضبة حسمى ككل وإن أصابه القحط فذلك يعني قحط البلاد كلها، وعلى الرغم من ذلك وقف وقال:

-الأرض لم تعد تريدنا، منذ أعوام لم تهطل الأمطار، فلا خيار أمامنا سوى الرحيل لجوار جبل أبي مخروق، فلربما نجد هناك الكلأ والماء.

أجابه صوت محموم خرج من بين الجمع: الجدب لم يقتل الأطفال أيها الحكيم، بل هي الحماقة من فعلت ذلك بنا.

وجاء صوت آخر غاضب: لماذا لا نرحل باتجاه بئر السبع؟ لماذا جبل أبي مخروق.

تدخل سعد الأفعى عندما شعر أن زمام الأمور سينفلت، قال بعد أن أزاح اللثام عن فمه: هذا ليس وقت الخوض في الماضي، علينا أن ندرك أننا في مفترق طرق، وعلينا التكاتف والتعاون، ثم إنه علينا التفكير في الرحيل فقط.

صمت ونظر نحو المضارب الفارغة من البيوت والتي غدت أطلالًا لم يتبقَ بها سوى الجدار الذي بناه أنف الكلب وقال: هل بقي أحد لم يحضر؟

قال ودود: جميعنا حاضرون.

تجمع أهل القاع أسفل التبة، جلست النساء والأطفال في طرف القافلة، بينما أخذ الرجال يتفقدون حمولة الإبل ويتأكدون من سلامتها، لبس "مهلاليل" قلنسوته الصفراء، وأشعل غليونه، توجه لوسط القافلة، أشار على الرجال أن يربطوا الإبل في بعضها بعضًا حتى تسير وراء بعضها بعضا في خط مستقيم، وأمر الرعاة أن يسيروا خلف القافلة بالأغنام وكلاب الحراسة.

تحركت القافلة مع بزوغ الشمس، كانت الشمس تميل للحمرة أكبر حجما من المعتاد تشبه كثيرا شمس ذلك اليوم الذي غابت فيه، وعادت بمعجزة تحدث عنها أهل القاع كثيرا، ظهر "مهلاليل" بردائه الأبيض كملاك يتقدم القافلة يسير بجواره سعد الأفعى، وعلى يسار القافلة سارت النساء والصبيان، وعلى يمينها سار الرجال وفي الخلف الرعاة والأغنام وكلاب الحراسة. سارت القافلة ككتلة واحدة بانتظام دقيق جدا، القاع يبتعد، بينما توقفت "هاجعة" والتفتت لقاع بني مرة، ذلك المكان الذي حوى صباها، ذلك المكان الذي انسكبت فيه لحظاتها، كل شيء ذاب، بدا القاع خاليا وكأن أحدًا لم يسكنه. عبارة عن مكان فارغ ليس به سوى بقايا لحظات. قالت هاجعة وهي تلحق

بالقافلة: عجبا لنا، يبدو أن القاع ضاق بتفاصيلنا وحكاياتنا؛ لذا ذهبنا نبحث عن وعاء جديد يحوي تفاصيلنا!

الريح الهائجة تعبث في القاع تثير الغبار الذي حجب الشمس لتغيب وهي مازالت في كبد السماء، الريح تطوف حول التبة، أبناء الشمس قصار القامة يراقبون المشهد من فوق الجبل، يتحينون الفرصة، وما أن طافت الريح حول قبور الأطفال المشوهين حتى انسلوا مسرعين لسفح الوادي، مروا من وسط القاع كتل سوداء متلاصقة يقتفون أثر القافلة.

سارت القافلة باتجاه الشمال. شد "مهلاليل" اللثام على فمه وأنفه، الغبار الكثيف والريح العاتية القادمة من الغرب يعيقان القافلة عن السير، لم تعد الرؤية ممكنة، تعصف الريح وتثير التراب تكاد تمزق الأجساد، جثى مهلاليل على ركبتيه، زحف حتى اقترب من سعد الأفعى وبقية الرجال. قال وهو يحكم اللثام على فمه من جديد: هذه الليلة ستكون متعبة لنا؛ آمل أن تمضي على خير، سنبات هنا. وضع يده على كتف سعد الأفعى وأضاف: قم يا سعد وخذ معك مجموعة من الرجال، واجعلوا من الجمال مصدا للريح، ونظر لشاب تبدو عليه

علامات الفطنة وقال له: يا شاهر، خذ معك مجموعة من الشباب واجمعوا الحطب.

قام سعد الأفعى ورفاقه بإناخة الأبل بجوار بعضها بعضا على شكل نصف دائرة، ثم وضعوا الأغنام في الجهة المقابلة، وفي المنتصف جهزوا مكان جلوس ومبيت أفراد القافلة، عاد شاهر ورفاقه يحملون الحطب قابلهم مهلاليل بابتسامة رضى. قال: ضعوا نصف الحطب في المنتصف، والنصف الآخر وزعوه حول القافلة من الخارج.

نجحت خطة مهلاليل في الحد من التراب والغبار الذي تحمله الريح بين الإبل والأغنام، أشعل الشبان نارًا تحلق حولها أهل القافلة، امتدت الأيادي فوقها طالبة الدفء، أسندت هاجعة ظهرها على بعير، وتلفعت بغطاء من الصوف اجتمع حولها بعض النسوة. جاءت دايعون تحمل إبريق الينسون الساخن وبعض من قطع الخبز اليابس. قالت هاجعة: لم يعد هناك طعم لأي شيء وغطت وجهها.

الصمت يلف المكان، الغبار العالق في الجو يتشكل على أشكال عدة، ذرات الرمل تلسع الوجوه والسواعد، الفضاء يتحول للون

الأصفر القاتم، كل شيء بات في قبضة الريح ولا يسع مهلاليل وبقية الرجال سوى انتظار هدوء العاصفة.

تطوق نيران صغيرة القافلة من جميع الاتجاهات لصد أي هجوم محتمل من وحوش الصحراء، بينما النار التي في الوسط أشعلت للتدفئة.

انسل "شاهر" متخفيا من بين الرجال، أحكم اللثام على أنفه وفمه ذهب باتجاه الخراف، تأكد أن أحدًا لم يره، ثم دار من خلف الجمال حبيًا على ركبتيه، وأطل برأسه من خلف أحد الجمال الباركة، رأى النساء يتحلقن حول "هاجعة" المتلفعة بغطاء من الصوف، نظر لليسار فرأى من جاء لأجلها، رأى مهجة قلبه، رمى عليها حصاة صغيرة، انتبهت لوجوده، نظرت له مندهشة وضعت يدها على فمها، تلفتت حولها قلقة خشية أن يراه أحد، أشار لها بأن تلتقيه خارج دائرة القافلة، هزت رأسها بالرفض، وضع يده على نحره في حركة تدل بأنه سيقتل نفسه إن لم تفعل، نهضت مترددة لم ينتبه لها أحد من النساء، سارت على أطراف أصابعها، أحكمت لثامها، تجاوزت الإبل، ووقفت

أمام شاهر تنظر للأرض، سرت رعشة في جسدها عندما أمسك بمعصمها وقال لها: هيا فلنبتعد عن القافلة.

تبعته دون أن تنطق بكلمة واحدة، غابا في موجة من الغبار بحثا عن مكان آمن، حتى وجدا شجيرات صغيرة من الرمث متلاصقة، تكون مصدًّا طبيعيًّا للريح، جلسا في ذراها. كانت "زهد" ترتدي رداءً أسودَ مطرزة أكمامه بخطوط حمراء، وجهها الصغير يشع نورا. همس لها شاهر: أحبك

أحمر وجهها حياءً، رفع غطاء رأسها لينسدل شعرها الحريري على كتفيها، لم يعودا يشعران بشيء سوى أنهما يعيشان أجمل لحظات حياتهما، قال وهو يمسك خصرها ليجبرها على التمدد: هكذا نقتل الوقت الممل، أن نذوب في بعضنا بعضًا، فنحن بذلك ننتصر على قبح الحياة!

بدت كحورية نزلت من السماء ممددة على الأرض، لثم شفتيها، غاب في اللذة، فتح أزرار قميصها، أمسك نهديها. صرخ صرخة مدوية عندما شعر بشيء يخترق جسده، تدفق دمه، سال على رمال الصحراء، انسلت روحه من جوفه وغادرت بعيدا برفقة الريح.

صاحت "زهد"، لطمت على وجهها، وعادت تركض للقافلة ألقت جسدها ما أن وصلت بين النساء التي ذعرن لمنظرها، رداؤها ممزق وشعرها مغبر وجسدها ينتفض، احتضنتها أمها، رأت الدم يلطخ خدها وعنقها، قالت هلعة: هل هاجمك ذئب؟

لم تجب، قدم مهلاليل يتبعه الرجال يحملون المشاعل، وقف ينظر للنساء ولجسد الفتاة المنتفض، لم يفهم ما يجري فقال: ما بها هل أصابها مكروه؟

قالت إحدى النساء: تكلمي يا "زهد" ماذا جرى! ما بك يا بنيتي؟!

وبعد محاولات عدة من النساء، نطقت "زهد" بصوت محموم حمل جملة صاعقة: مات "شاهر".

أمسكت أمها بكتفيها وهزتها نظرت لها بريبه: كيف مات؟ وما علاقتك أنت به!

دنا منها "مهلاليل"، جلس بجوارها وضع يده على كتفها، وقال بصوت دافئ: تحدثي يا "زهد"! ماذا جرى؟ البكاء لا يجدي نفعا الآن، كيف مات شاهر؟

اعتدلت زهد ومسحت بكفها دموعها، حاولت أن تبتلع الزفرات وتسيطر على الصوت المتردد في صدرها: كنا هناك عند الرمثة الغربية، أحدهم طعن شاهر برمح في ظهره. ثم راحت في نوبة بكاء.

هل شاهدتِ من طعنه؟ أعاد الحكيم السؤال ولكن هذه المرة بحدة!

هل شاهدتِ من طعنه؟ هيا تحدثي!

وضعت وجهها بين كفيها وقالت: لم تكن له ملامح! عبارة عن كتلة سوداء، بل ظل أسود!

قال مهلاليل وهو ينظر لسعد الأفعى: يبدو أن أبناء الشمس يتبعوننا! حسنا فعلنا عندما أشعلنا النيران حول القافلة، وبعد أن نهض واقفا واصل حديثه: اذهب يا سعد وخذ معك مجموعة من الرجال، وانظر ماذا حل بشاهر، كونوا حذرين! ثم وجه حديثه لعموم الناس: عليكم البقاء في أماكنكم، ولا يغادر منكم أحد القافة أبدا.

ذهب سعد الأفعى برفقة ثلاثة من الرجال للمكان الذي دلتهم عليه زهد، هناك وجدوا جثة شاهر مسجاة وملطخة بالدماء، حملوا الجثة وعادوا للقافلة.

انهزمت الشمس أمام الغبار وغابت منكسرة خلف كثبان الرمال، وحل الليل المعتم تقاومه ألسنة اللهب وتظهر بعض ملامح الوجوه الغائبة في العتمة.

تهامست النساء، بات مفهوما ما كان يدور حول زهد وشاهر، قالت إحداهن في ظل ما نحن به من مصائب، كيف لهما بارتكاب هذه الحماقات، الحب يؤجل إذا كان الموت مكشرا عن أنيابه.

ردت أخرى: لا تنسي أن شاهر مقطوع من شجرة، لم يجد من يربيه. ولكن العتب على زهد.

كانت هذه الكلمات الهامسة، تتصاعد مع الدخان المتصاعد من النار تكسر جمود الليل.

نظر مهلاليل للجرح في ظهر شاهر، كان عميقا جدا يستطيع إدخال يده من خلاله.

قال ودود: إكرام الميت دفنه، إلى متى تظل هذه الجثة بيننا.

إننا ندفن الجثث كي لا تذكرنا بالموت، كي لا تنغص حياتنا. حل صمت طويل بعد هذه الجملة التي خرجت من حنجرة أحد الفتيان.

قال الحكيم: الحق مع ودود، ادفنوا الجثة، وبعد ذلك تناوبوا على الحراسة، سنمضي في رحلتنا مع بزوغ الفجر.

استلقى سعد الأفعى على ظهره يفكر فيما جرى، جاءه صوت هاجعة وهي تقترب منه: الريح لن تدعنا نفلت هذه المرة.

أجابها بعد أن اعتدل: وما دخل الريح!

قالت: ألم ترَ كيف أرادت حجب الشمس عنا، إنها تعرفنا واحدا واحدا. تعرف ملامحنا، تدرك غاياتنا، لن تدعنا نهرب.

قال سعد الأفعى: في هذا الوقت من العام، تهب الريح المثيرة للغبار، الأمر طبيعي، ولكنك تحملين الأمور ما لا تحتمل.

انسلت هاجعة عائدة للنساء، نظر سعد الأفعى للأفق، رأى النجوم، لقد انزاح الغبار وعادت السماء صافية، البرد القارص؛ جعل سعد الأفعى ينتقل للنوم وسط الخراف.

11

ظلت "زهد" مستيقظة طوال الليل، لم تستطع النوم؛ تحاصرها نظرات "شاهر" المليئة بالحب والرغبة، لتتحول خلال ثوانٍ فقط لنظرات مليئة بالرعب والخوف، لم تنفع كمادات الحناء التي وضعت على جبينها في تخفيف الحرارة، قامت إحدى النساء بإطفاء جمرة من النار، سكبت عليها الماء ثم وضعتها في إناء، وأضافت عليها مسحوق العصفر، وأسقته زهدًا فتماثلت للشفاء على الفور. قالت: لم يكن بها سوى الخوف ولقد زال، دثروها بغطاء لترتاح لعلها تنام.

وقبل طلوع النهار بقليل استيقظ الناس على صوت "هاجعة" جاء كصوت ريح قاربت على الهبوب قالت: أجننت يا "سعيرة"؟ كيف تريدين البقاء أنت وابنتك "زهد" هنا؟

- ربما تطهر هذه الرمال خطيئتها، لتخرج روحها طاهرة.

بحث مهلاليل عن سعد الأفعى حتى وجده نائما بين الخراف، أيقظه وتوجها نحوا النساء، قال مهلاليل: ماذا جرى؟

أجابت هاجعة: "سعيرة" تريد البقاء هنا هي وابنتها!

- نعم، سأبقى، هذا قراري ولن أغيره أبدا.

قال سعد الأفعى: أجننتِ يا أم زهد؟ الصحراء مليئة بالوحوش، ناهيك عن خدام الشمس! المكوث هنا خطر، ثم لا يوجد مبرر لبقائكما.

- قلت لن أغادر هذا المكان، إذا رحلت فسيرحل عارنا معنا، لذا لابد أن ندفنه ها هنا حيث ولد وسيموت.

لم تجدِ المحاولات في إثناء "سعيرة" عن رأيها، فضلت هي وابنتها في الخلاء بين الرمال والهضاب ليواجها مصيرهما.

قال مهلاليل: اتركوا عندهما ناقة محملة بالزاد.

مع بزوغ الشمس غادرت القافلة، وبقيت زهد تبكي تترجى أمها أن يلحقا بالقافلة، ولكن سعيرة قد اتخذت قرارًا لا رجعة فيه، قالت وهي تنظر لقبر شاهر: ستظلين بجوار حبيبك، ستموتين هنا يا فاجرة.

صمتت وقالت في نفسها "وأنا لا أستطيع الحياة دونك، لذا سنموت سويا"

مضى النهار ثقيلا كئيبا، وذابت توسلات زهد في رمال الصحراء، نبت الوجع بين أضلعها، ماتت الكلمات في جوفها، الشمس تحمل النهار على كتفها وتمضي حيث الغروب. السماء ترتدي حلتها السوداء. الظلام يبتلع كل شيء سوى خيال سعيرة الذي يذهب ويجيء أمام عيني ابنتها زهد، أصوات متداخلة تقدم من الغرب، تقترب الكتل السوداء. احتضنت سعيرة ابنتها وقالت: لقد جاء عباد الشمس، سامحيني يا ابنتي.

*****

قال "مهلاليل" بعد أن نفث دخان غليونه من فمه مخاطبا سعد الأفعى: هل أخطأنا بترك سعيرة وابنتها زهد لوحدهما.

-لم يكن أمامنا خيار آخر، وإذا تأخرنا فسنموت جميعا.

ارتاح الحكيم لجواب سعد الأفعى، واصلت القافلة سيرها في جو صحو على غير العادة، نسمات باردة تمسح الوجوه بلطف، يكسر لحظات الصمت نباح الكلاب في مؤخرة القافلة.

من بعيد تظهر جبال مدين وبين الكثبان الرملية تتمايل الجمال المتعبة، تطوف بالقافلة أحاديث الأمل على الرغم من القلق الذي يعصف بالأفئدة، أهل الصحراء يعرفون أنها مهلكة وعلى الرغم من ذلك يتشبثون بها.

في جانب عرق جبلي قرر مهلاليل أن ترتاح القافلة هناك بعد مسير نهار كامل دون راحة.

كانت ليلة جميلة هادئة كلياني القاع الجميل أوقات الربيع.

لم يحدث ما يعكر صفو القافلة، ناموا جميعًا في ارتياح.

وفي الصباح صاح أحد الرعاة: أيها الحكيم قد عادت الناقة.

التفت مهلاليل فشاهد الناقة التي تركوها عند سعيرة وابنتها زهد تتبعهم، أشار للراعي أن يضمها للقافلة.

قال سعد الأفعى:

- هذا يعني أن سعيره وابنتها قد هلكتا.

قال الحكيم:

- فلتتحرك القافلة على الفور؛ أمامنا مسيرة يومين ونصل إلى جبل أبي مخروق.

ما أن بدأت القافلة التحرك، حتى وقفوا جميعًا مشدوهين ينظرون لجبال من الرمال تسير خلفهم، وبعد صمت طويل قال سعد الأفعى: إنها عاصفة رملية، علينا إيجاد مكان لنختبئ فيه على الفور.

تحركت القافلة بسرعة في صحراء قاحلة. العاصفة اقتربت جدا، ظلها وصل للرعاة في مؤخرة القافلة، الكلاب تنبح بشدة، والماشية جفلت، عوالق رملية تسيطر على السماء تحجب ضوء الشمس، هبات من الريح تعبث بالأمتعة فوق الأبل، خمسة من الأعاصير الكبيرة تتجه نحو القافلة، تحاصرها ثلاثة عن اليمين واثنان عن اليسار، هجم أحد الأعاصير على القافلة فأحدث خرابًا كبيرًا، أسقط الأمتعة. صاحت "هاجعة" كمجنونة وهي تحدق في الإعصار، فقد شاهدت ابنها المغيث بداخل الإعصار، وقد بدا ضخما، جسمه الرخوي طال كثيرا، ملامح وجهه تحمل تعابير الغضب، وعيناه الزائغتان تحملان نظرات العتب، كان يقود الإعصار بغضب، انكبت على وجهها تبكي، ابتعد إعصار المغيث بعد أن عبر من منتصف القافلة، رأى الناس المغيث وسط دوامة الغبار، كان شكلة مهيبا جدا، لم تمضِ لحظات حتى هاجمت باقي الأعاصير القافلة.

الإعصار الأول كان به "الأحدب ابن نائلة"، لم يعد ذلك الفتى النحيل، بل بدا شيخا بنصف جسد له لحية بيضاء طويلة، هاجم على الأغنام فأفنى نصفها، دار حول أمه "نائلة" التي تسمرت مكانها من الذهول، توجه الإعصار الثاني لمقدمة القافلة، طاف حول مهلاليل وسعد الأفعى، رأى مهلاليل في داخله "عابر ابن أسفر"، عيناه الدائريتان قد زادتا اتساعا، وجسمه الشبيه بالثعبان قد ازداد طولا، تذكر مهلاليل تلك اللحظة التي تناوله من والدته وقال: اعطيني هذا الثعبان الصغير الذي منع عنا المطر طيلة هذه السنوات.

ولكنه يظهر الآن كثعبان كبير مخيف.

إعصار أخر هاجم الجهة اليمنى من القافلة، كان يقوده "ساهم بن عارية"، توجه مباشرة ناحية أمه، طاف حولها عده مرات، شاهدت الصدفة التي على ظهره وقد تضخمت، دوى في أذنها صوت الزعيم قادما من بعيد: ربما كانت هذه الصدفة هي التي منعت عنا المطر.

طافت حولها الذاكرة، شاهدت نفسها عندما طافت به بين القبور وقدمته كعربون.

أما الإعصار الذي هاجم الجهة اليسرى، فكان يقوده "أحمز ابن دادا"، يد ضخمه تنتهي بقطعه من اللحم، تطوف وحولها ذرات من الغبار تعصف بكل شيء أمامها، هاجم الإبل فقتل كثيرًا منها، هاجم الحكيم إلا إنه أفلت بأعجوبة، صاح دادا: ألم أقل لكم أن ما حدث مجرد عبث، ركضت نحوه "دايعون" جثت على ركبتيها: إنه ابني؛ كيف غدى كذلك.

انصرفت الأعاصير، التقت في نقطة محددة لتتداخل في بعضها بعضًا، وتكون دوامة كبيرة من الرمال، تحركت باتجاه الشرق.

كانت خسائر القافلة كبيرة جدا، ولكن الخسائر النفسية كانت أعظم، تحول الناس لكتل من الوجوم يحيطها الذهول، وقفت العقول عاجزة عن إدراك ما حدث ولم يعد لدى الحكيم ما يقوله.

جلس يفكر: كنت أعتقد أننا يوم دفنا المشوهين قد حررناهم من قيود الزمن البالية! ولكن ما حدث غير ذلك!

سأل سعد الأفعى بصوت ضعيف: هل رأيت يا سعد كيف أن ملامح الأطفال قد كبرت وأن أجسادهم قد تضخمت وكأنهم كبروا خمسين سنة؟!

-نعم، وماذا يعني ذلك؟

-يعني أن الأمر بات مرعبًا جدا. وأننا علقنا في شباك الزمن!

أمهات المشوهين منهارات تماما، وعلى الرغم من ذلك واصلنا المسير برفقة القافلة.

قال سعد الأفعى: من المفترض أننا غدًا نصل لجبل أبي مخروق.

ولكن الصحراء الجرداء على مد النظر، ولا تظهر في الأفق أي جبال، ولكن على بعد عدة أمتار، ظهرت لهم كتلة من الهضاب متجاورة، شكلها من بعيد بدا غريبًا جدًّا.

كانت مجموعة من الصخور الكبيرة تقف وسط الرمال، وقد نحتتها الريح على أشكال عدة، وقف مهلاليل مذهولًا يتفحص حجرًا يشبهه تماما. كان فاردا ذراعيه ويبتسم، تذكر الحكيم تلك اللحظة، كانت عند قدومه للقاع بعد رحلة تجارية للشام، أما سعد الأفعى، فقد أسرته الدهشة وهو ينظر لحجر نحت على شكله تماما، كان يمسك أفعى سوداء ذات قرنين، كانت تلك اللحظة عندما وجد الأفعى بعد أن اختفت لمده شهرين، كان يعتقد أنها ماتت. يتوسط التماثيل تمثال

كبير للزعيم، تظهر على ملامحه السعادة. تذكر مهلاليل تلك اللحظة وقال: هذه فرحة سيط الله عندما نُصِّبَ زعيما للقاع.

وفي الجانب الغربي صخرة كبيرة نحتت على شكل سفينة بطابقين ينزل منها أناس وحيوانات وطيور. قال مهلاليل: تلك سفينة نوح التي أعادتنا للحياة!

حتى "أنف الكلب" لم تنسَه الريح، فقد صنعت له تمثالًا وهو يعانق شجرة السمر، جاب الناس بين التماثيل ينظرون لها باندهاش يبحثون في تفاصيلها عن لحظات نُسِيَت.

إن للريح ذاكرة تحفظ تفاصيل ملامحنا، ومن ثم تنحتها على الصخور، قال سعد الأفعى تلك الجملة وواصل: هذا المكان طريق للريح، يمتد من الشمال للجنوب، الأشجار المقتلعة والصخور المنحوتة تدل على ذلك.

قال الحكيم: سنسير مع طريق الريح إذن باتجاه الشمال.

وقفت هاجعة تبكي أمام حجر يحمل ملامح زوجها ثاقب، نظرات عينيه الفارغة هي ذاتها التي شاهدتها عندما عاد من كثيب القوز.

لماذا تنحت الريح التماثيل لنا؟!

كيف تحفظ ملامحنا؟!

ربما تمتلك ذاكرة؟!

أخشى أن يكون الزمن هو الآخر يمتلك ذاكرة!

الذاكرة مشكلتنا كبشر، خصوصا لمن يستطيعون تذكر المستقبل!

تداخلت أصوات النساء والرجال بتلك الجمل، ومضت القافلة باتجاه الشمال تتبع طريق الريح تجوب المفازات تسير في سهول ومنعرجات، وبعد مسيرة توقفت القافلة أمام منحدر رملي كبير.

قال الحكيم: الليلة سنبات هنا وغدا نصعد المنحدر.

نسمات عليلة تطوف بالقافلة، أضرم الرجال النار في كومة من الحطب، انعكاس النار على وجوه الناس يظهر ملامح القلق والخوف، مسح سعد الأفعى شاربه بيده بعد أن شرب حليبًا من إناء طاف به شاب على الرجال المجتمعين حول النار.

السماء السوداء مطرزة بالنجوم. هناك غابت هاجعة تنظر لنجم كبير متوهج. تشعر بالارتياح. غفت على أحاديث دايعون.

مع شروق الشمس، كانوا جميعًا مستعدين لصعود المنحدر الرملي، كان الأمر شاقًّا على الإبل المتعبة. تعاونوا جميعًا على سحبها وحمل بعض العتاد، مضى نصف النهار حتى كانوا جميعًا فوق قمة المنحدر ينظرون بذهول لقاع بني مرة.

يا للجنون! كيف حدث ذلك؟!

عدنا للقاع مجددا!

البئر أسفل الوادي كما هي، التبة التي دفن بها المشوهون تظهر من بعيد وقد نبتت عليها خمس من أشجار السمر. يظهر خباء ساكبة فوق المنحدر، في الجهة المقابلة تخفق به الريح، شجرة السمر العملاقة كما هي، ولكن نبتت بجوارها شجرة سمر أخرى صغيرة، نزلت القافلة المنحدر في صمت دون أن ينطق أحد بكلمة واحدة.

هاجت الريح، صفرت بشدة. ومن بعيد قدمت دوامة ضخمة من الرمال، ظهر من داخلها خمسة من الأعاصير العاتية القوية، ارتفعت أمواج الرمال عاليا، ونزلت على مجموعة من الناس وغطَّتهم تماما، توالت هجمات الرمال، أحدها استطاع اللحاق بالحكيم وحاصره، بدت علامات الهلع على الحكيم، أخرج الحجر من خرجه، بينما أنفاسه

تتصاعد، وضعه على رأسه، تبخرت ذاكرته، حينها هجمت الرمال عليه وطمرته تماما، أما سعد الأفعى فهو الوحيد الذي استطاع الفرار من هجمات الريح، امتطى ناقته وهرب عائدا خلف المنحدر، عدت ناقته بسرعة جنونية، تجاوزت الرمال ونزلت به المنحدر، تبعه عباد الشمس، كتل سوداء بقامات قصيرة، انسلت خلف الناقة، بينما تواصلت هجمات الريح على القافلة لتطمرها الرمال تماما. استطاعت الريح أن تدفن القافلة، أن تمسح معالم القاع. وبعد أن هدأت طافت الأعاصير الخمسة حول المكان، تداخلت مع بعضها بعضًا لتصبح وكأنها طريق يصل الأرض بالسماء، ومع غروب الشمس غدى كل شيء تحت الرمال. نسمات باردة طافت بالمكان بعد أن ردم ما بين المنحدرين، وكأن القاع لم يكن.

تمت بحمد الله.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.